التصوف عند مصطفى محمود

"رؤية تربوية"

إعداد

أ.د/ حنان أحمد رضوان

أستاذ أصول التربية

كلية التربية – جامعة بنها

أ.د/ صلاح السيد عبده رمضان

أستاذ أصول التربية

كلية التربية – جامعة بنها

شيماء إبراهيم أحمد الليثي

باحثة دكتوراه

التصوف عند مصطفى محمود

"رؤية تربوية"

إعداد

شيماء إبراهيم أحمد الليثي

ملخص الدراسة

يفرض علينا السياق الثقافي السائد في العالم الإسلامي النظر إلى التصوف الإسلامي بصورة واقعية أكاديمية، فعندما تذكر كلمة "تصوف" في الأوساط الثقافية ينظر إليها بشيء من الحيرة وعدم وضوح الرؤية، لما ارتبط بها من صور مشوهة عند البعض تقترن بالتخلف والشعوذة، والابتعاد عن أصول الدين، وربما أخرجها البعض عن دائرة الإسلام، وربما اعتبرها البعض موروثاً قديماً لا قيمة له ولا حاجة لنا إليه الآن، والغريب أن هذه النظرات قد تناست العديد من الأبعاد أهمها: أنها تناست إسهام التصوف في كافة المجالات الثقافية التي قدمها المتصوفة المسلمون على مدار العصور الإسلامية، كما تناسب دور التصوف في نشر الإسلام في شتى بقاع العالم، وتناست أيضاً الدور الأخلاقي للتصوف في قالبه الروحي.

وفي ظل تلك المعطيات والظروف الصعبة، فإنه ليس من الغريب أن يهمش التصوف وسط هذه الماديات التي أصبحت، مع الأسف، معيار القيم لدى الكثير منا، وفي ظل هذه الظروف أيضاً يظهر لنا مدى احتياجنا، إلى منهج التصوف الذي يرتكز على العديد من المحاور لعل من أهمها:

١- العلاقة مع الله.

٢- العلاقة مع الإنسان (علاقته بالآخرة، علاقته مع نفسه).

٣- العلاقة مع الطبيعة.

ولذلك فقد اخترنا شخصية من الشخصيات المعاصرة التي أثرت في حياتنا الدينية والعلمية والاجتماعية بالعديد من الأعمال التي تستحق الوقوف عليها من خلال نظرته الصوفية للطبيعة والكون والإنسان، هو المفكر والكاتب والأديب المتصوف والفيلسوف دكتور مصطفى محمود الذي يستحق منا كل تقدير واحترام لمجهوداته الرائعة وانجازاته العلمية والاجتماعية.

ويعد مصطفى محمود من المفكرين الذين لديهم معرفة بالفلسفة والتصوف، وعرفوا الطبيعة ودرسوا الطب، وقد جمع بينهما ليخرج علينا بفلسفة جديدة ورؤى لم نكن ندركها وذلك من خلال نظرته للكون ومخلوقات الله؛ وهي نظرة صوفية فلسفية في الكون والطبيعة والأشياء المحيطة.

ولقد تناولت هذه الدراسة تكوين فكرة مجملة عن الآراء النظرية والتطبيقية البارزة التي حفلت بها مؤلفات مصطفى محمود في الأدب والفكر والثقافة، لذلك كان الهدف الرئيس لهذه الدراسة هو: بيان أهم ملامح التصوف عند مصطفى محمود كتجربة تربوية وانبثق من هذا الهدف عدة محاور هي:

١- تحديد منابع التصوف عند مصطفى محمود.

٢- الاتجاه الفكري الذي تميز به مصطفى محمود وجعله أديباً متصوفاً.

٣- أهم الركائز الأساسية التي أقام عليها مصطفى محمود مبحثه في الوجود.

٤- أهم محددات الطبيعة الإنسانية من منظور التصوف عند مصطفى محمود.

٥- كيفية النهوض بالمجتمع المادي المعاصر من خلال القيم الصوفية.

٦- كيفية الاستفادة من التجربة الصوفية عند مصطفى محمود في إصلاح المجتمع.

ولتحقيق أهداف هذه الدراسة فقد جعلت المنهج الوصفي سبيلها لاستخدام أسلوب تحليل الفكرة، وذلك بالعمل على جمع الجوانب التي تتشابه مع بعضها عندما يعرض الكاتب رؤيته للتصوف من خلال دراسة جوانب الطبيعة الإنسانية حتى نخرج بصورة متكاملة عن ما كتبه أو حققه في الواقع من خلال جمعيته الخيرية، ومن ثم نتعرف وجهة نظره للطبيعة الإنسانية، كي يصل إلى هدف المنشود.

وخلصت الدراسة بمجموعة من النتائج التي تمثل التطبيقات التربوية للتجربة الصوفية عند مصطفى محمود وهي تنحصر في الأهداف والوسائل وآليات التحقيق وعليه فقد تم تركيزها في النقاط التالية:

١- أن رسالة الإنسان هي دعوة إلى أدب النفس وتهذيبها روحياً، ويقوم على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر وقوة العقل وتزكيته، والعلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ويدعو إلى كمال الإيمان، والحصول على درجة الإحسان.

٢- مهما بلغ علم الإنسان فإن علمه قاصر، وعليه ألا يظن أنه لا يوجد من هو أعلم منه مهما بلغت درجة علمه، وكما يقال "المزية لا تعطى الأفضلية، فمن العلم ما هو علم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة، وعلم ببواطن الأشياء يمكن تحصيله بناء على تصفيته الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب من العلائق الجسمانية.

٣- لا توجد مخالفة بين الشريعة والحقيقة ولا بين الظاهر والباطن، فحقيقة العلاقة بين الشريعة والحقيقة إنما هي التلازم أو الاتحاد، فالشريعة أمر بالتزام العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى، والحقيقة مشاهدة آثار الربوبية في تمام العبودية.

- فالشريعة جاءت بتكليف الخلق بالعبودية التامة والحقيقة إنباء عن تصريف الحق في الخلق.

- أي أن الشريعة معرفة السلوك إلى الله تعالى والحقيقة مداومة النظر إليه، فالشريعة ظاهرة الحقيقة، والحقيقة باطن الشريعة.

- والشريعة والحقيقة متلازمتان لا يتم أحدهما إلا بالآخر... وهذا هو منطلق الصوفية العارفين بالله تعالى أهل التشريع والتحقيق.

٤- إن غايتنا العظمى هو الوصول إلى الله تعالى (أعرف الله تعرف من تعبد) والرضى عن الله وبالله ولله هو المقام المنشود الذي لا يتحقق إلا بتمام العبودية وكمال العبودية لله.

٥- التربية الصوفية تربية إيمانية تهتم بتقوية الوازع الإيماني عند الأفراد ليصلوا إلى الكمال والرضا النفسي. وذلك لأن الإيمان قول وعمل، ولا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص، والإيمان لا يقبل إلا بالصلاة والصيام والصدقة وأفعال الخير.

٦- تهدف التربية الإيمانية إلى صياغة الإنسان وفق مفاهيم الدين وتعاليمه، فالدين هو الأساس لكل تدين، وهو الموجه لكل نشاط إنساني، وكل عمل المربى يدور في إطار الدين والشرع من أجل معتقداته وقيمه في نفس الناشئ وسلوكه وفكره ليكون هو الدافع والمحرك في آن واحد.

٧- أن الإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله ليسير بجسمه على الأرض بينما يتجه بروحه إلى السماء، فإن التربية الصوفية حاولت تطبيق هذا المبدأ، وحاولت أن تصل الإنسان بالله ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته، ويستغل كل الطاقات التي منحه الله إياها.

٨- إن النظام الإسلامي يتناول الحقائق الكلية كلها، حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة وحقيقة العبودية، وحقيقة الإنسان ويربط بين مجموع تلك الحقائق من جميع جوانبها في تصور واحد منطقي فطري، يتعامل مع فكر الإنسان ووجدانه، ومع مجموع الكينونة البشرية في كل متكامل.

مقدمة الدراسة:

يفرض علينا السياق الثقافي السائد في العالم الإسلامي النظر إلى التصرف الإسلامي بصورة واقعية أكاديمية، فعندما تذكر كلمة "تصرف" في الأوساط الثقافية ينظر إليها بشيء من الحيرة وعدم وضوح الرؤية، لما ارتبط بها من صور مشوهة عند البعض تقترن بالتخلف والشعوذة، والابتعاد، والابتعاد عن أصول الدين، وربما أخرجها البعض عن دائرة الإسلام، وربما اعتبرها البعض موروثاً قديماً له ولا حاجة لنا إليه الآن. والغريب أن هذه النظرات قد تناسب العديد من الأبعاد أهمها: أنها تناسب إسهام التصوف في كافة المجالات الثقافية التي قدمها المتصوفة المسلمون على مدار العصور الإسلامية، كما تناست دور التصوف في نشر الإسلام في شتى بقاع العالم، وتناسب أيضاً الدور الأخلاقي للتصوف في قالبه الروحي.

وفي ظل تلك المعطيات والظروف الصعبة، فإنه ليس من الغريب أن يهمش التصوف وسط هذه الماديات التي أصبحت. مع الأسف. معيار القيم لدى الكثير منا، وفي ظل هذه الظروف أيضاً يظهر لنا مدى احتياجنا إلى منهج التصوف الذي يرتكز على العديد من المحاور لعل من أهمها:

١- العلاقة مع الله.

٢- العلاقة مع الإنسان (علاقته بالآخر – علاقته مع نفسه).

٣- العلاقة مع الطبيعة.

ومن هذا المنطلق يتأكد لدينا أن الإسلام يستهدف في جوهره تحقيق أهم الأغراض في حياة الإنسان أولهم: تنظيم علاقة الإنسان بالله تعالى، وثانيهما: تنظيم علاقته بأخيه الإنسان داخل المجتمع وكذا علاقته بذاته، ومن ثم فالحياة الدينية والحياة الدنيوية كلاهما ميدان له – أي الإنسان، يوجهها الوجهة التي يراها، ويعني بهداية الفرد فيها إلى الصراط المستقيم.

ومع هذه النظرة المستقيمة فإن الإسلام في نظرته إلى صله الإنسان بأخيه وبالمجتمع والحياة من حوله، ورفض رفضاً مطلقاً ذلك التقسيم الذي أقامته بعض الأديان والفلسفات بين ما هو ديني وما هو دنيوي بل عمد جاهداً من أجل وضع منهج حياة شامل ومتكامل للإنسان، ومنهج يشمل الاعتقاد في الضمير والتنظيم في الحياة بدون تعارض بينهما، بل في ترابط يعز فصله، لأنه حزمة واحدة في طبيعة هذا الدين، وأن فصله هو تمزيق وإفساد لهذا الدين.

وهكذا فإن الإسلام لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات الدينية فيما بين المرء وربه فحسب، بل يعرض أيضاً بمثل هذا التوكيد للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية.

ولذلك فقد اتسم المنهج الإسلامي للحياة البشرية بالواقعية والاستجابة لطبيعة الإنسان وطبيعة الظروف التي تحيط بحياته في الكون ومدى طاقاته الواقعية الحقيقية.

والحق فإن هذا التوازن الرائع الذي يقيمه الإسلام بين متطلبات والحياة الاجتماعية، وهذا الوسط المعتدل بين الزهد الخالص والطاعة الحقه، والذي يقيم عليه نظرته إلى الألوهية وإلى الحياة، ربما هي الخاصية التي تميز بها – في هذا الخصوص – عن سائر العقائد والفلسفات والأديان. إنه دعوة روحية إلى الله والارتباط به فكراً وعملاً من أجل تهذيب النفس صقلها والارتفاع بها إلى الأفاق العليا للروحانية السامية، قال تعالى: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ) [الذاريات: ٥٠]، وقال الله تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) [آل عمران: ٧٩]، وقال الله تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: (إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال: ٢٩].

وعليه فإن كثير من المؤسسات الدينية التي تحتشد بقمم شامخة من أصحاب الفكر الإسلامي. وجب عليهم أن يوضحوا الإشكاليات التي وجدت بين تلك المفاهيم التي ترتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً، ويتم التركيز فيها على القيم الدينية والتربوية باعتبار أن الدين له مكنونه وفي جوهره التربية الحسنة ومن أهم مظاهره السلوك السليم لذا يجب التوضيح، لفض الالتباس بين تلك القضايا والمشكلات وخاصة التربوية منها للاستعانة بها في تربية النشء.

ولذلك فقد اخترنا شخصية من الشخصيات المعاصرة التي أثرت في حياتنا الدينية والعلمية والاجتماعية بالعديد من الأعمال التي تستحق الوقوف عليها من خلال نظرته الصوفية للطبيعة والكون والإنسان، هو المفكر والكاتب والأديب المتصوف والفيلسوف دكتور مصطفى محمود الذي يستحق منا كل تقدير واحترام لمجهوداته الرائعة وانجازاته العلمية والاجتماعية.

ويعد مصطفى محمود من المفكرين الذين لديهم معرفة بالفلسفة والتصوف، وعرفوا الطبيعة ودرسوا الطب، وقد جمع بينهما ليخرج علينا بفلسفة جديدة ورؤي لم ندركها وذلك من خلال نظرته للكون ومخلوقات الله، وهي نظرة صوفية فلسفية في الكون والطبيعة والأشياء المحيطة بنا، وأحياناً ما تثير أفكاره ومقالاته جدلاً واسعاً عبر الصحف ووسائل الإعلام حيث قال: لقد اكتشفت منذ تلك الطفولة البعيدة دون أن أدري حكاية الموسيقي الداخلية الباطنة في العبارة القرآنية، وهذا سر من أعمق الأسرار في التركيب القرآني.. إنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع... وإنما هو معمار خاص من الألفاظ صفت بطريقة تكشف عن الموسيقي الباطنة فيها.

يعتبر مصطفى محمود من الكتاب الذين يؤمنون بالمواقعية فحولتهم ضغوط الحياة وغيرت شخصيتهم وأفكارهم إلى جهة فرأي أن كل الحلول المعروضة في بيئته قد فشلت ووجد في الإسلام والتصوف حلاً لهذه المشكلات، بالإضافة إلى عملية الإقناع الفكري بخروجه من الشك إلى اليقين، فتحول إلى كاتب إسلامي متصوف، فهو بذلك يحتل مكانة متميزة بين الكتاب.

وقد عرض رأيه عن حقيقة القرآن والتصرف حيث قال "إن حقيقة القرآن لا تعرف عن طريق القراءة وإنما تعرف عن طريق الممارسة في تقليد المعصوم عبادة وسلوكاً وهو ما سمي في أخريات الأيام بـ "التصوف" ثم قال أيضاً: دائماً كانوا يسألونني: هل تؤمن بالتصوف؟ وكنت أجيب دائماً، أنا متصوف ولست صوفياً وهناك فرق كبير بين الاثنين، والدليل على تصوفي كتابي "التفسير العصري للقرآن" وكتب أخرى كثيرة....

أهمية الدراسة:

هذه الدراسة تتناول بنوع من التحليل قضية التصوف كتجربة تربوية كما عرضها مصطفى محمود من خلال مؤلفاته وكتبه التي شكلت آراؤه فيها ملمحاً بارزاً في منهجه الفكري، مما يساعد بصورة أكبر على استجلاء حقيقة هذا الكاتب ومشروعه الفكري الذي سخر حياته لنشره والدعوة له والتفاني فيه.

كما أن من الأسباب التي دفعتنا لمثل هذه الدراسة هو التعريف الصحيح لمفهوم الطبيعة الإنسانية وتحديد سماتها، ومكوناتها وعلاقتها بالتصوف من خلال كتابات وأفكار وآراء مصطفى محمود كتجربة فعلية، واستخدام ذلك المنهج في تربية أبنائنا تربية سليمة سوية، مبنية على الفطرة التي حبانا بها الله، كي نستطيع أن نكمل صورة الإنسان المسلم، الذي نسعى إلى إعداده وتربيته تربية إسلامية صحيحة.

ولقد جعل الله هذه الفطرة نازعة إليه بطبيعتها تطلبه دوماً كما تطلب البوصلة أقطابها مشيرة إليه دالة عليه، فليكن كل منا كما تملي عليه طبيعته لا أكثر، وسوف تدله طبيعته على الحق، وسوف تهديه فطرته إلى الله بدون جهد كما أشار مصطفى محمود وأكد "كن كما أنت، وسوف تهديك نفسك إلى الصراط".

قضية الدراسة:

تتمحور قضية الدراسة في التساؤل الرئيس التالي:

ما أهم ملامح التصوف عند مصطفى محمود كتجربة تربوية؟

ويتفرع من ذلك التساؤل الرئيس عدة تساؤلات:

١- ما منابع التصوف عند مصطفى محمود؟

٢- ما الاتجاه الفكري الذي تميز به مصطفى محمود وجعله أديباً متصوفاً؟

٣- ما الركائز الأساسية التي أقام عليها مصطفى محمود مبحثه في الوجود؟

٤- ما محددات الطبيعة الإنسانية من منظور التصوف عند مصطفى محمود؟

٥- ما أهم القيم الصوفية التي تنهض بالمجتمع المادي المعاصر؟

٦- كيف يمكن الاستفادة من التجربة الصوفية عند مصطفى محمود في إصلاح المجتمع؟

منهج الدراسة:

طبيعة الدراسة تجعل المنهج الوصفي سبيلها لاستخدام أسلوب التحليل للفكرة، وذلك بالعمل على جمع الجوانب التي تتشابه مع بعضها عندما يعرض الكاتب رؤيته للتصوف من خلال دراسة جوانب الطبيعة الإنسانية حتى نخرج بصورة متكاملة عن ما كتبه أو حققه في الواقع من خلال جمعيته الخيرية، ومن ثم نتعرف وجهة نظره للطبيعة الإنسانية، كي يصل إلى هدفه المنشود.

نبذة عن نشأة التصوف:

يجد الباحث في تاريخ التصوف الإسلامي صعوبة بالغة في معرفة الأصول التاريخية لنشأة التصوف الإسلامي تحديده على وجه الدقة، وذلك لاختلاف العلماء في معرفة كيف بدأ التصوف؟ وإلى من ينسب؟ ومم يستمد أصوله التي قام عليها؟

فكان علينا بالبداية أن نقدم نبذة مختصرة عن تعريف التصوف الإسلامي وتطوره، ومصادره التي قام عليها.

ونرى أن التاريخ الإسلامي حافل بالصفحات الناصعة التي سجل فيها التصوف الإسلامي النقي أمجاده الخالدة وأياديه البيضاء في تحرير عقليات الشعوب من الجمود والتخلف، وفتح أمامها أفاقاً واسعة من الفكر الإسلامي المصفى.

ولقد كان للتصوف رجال، هم رهبان الليل، وفرسان النهار، قال تعالى: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) [الأحزاب: ٢٣]، فصاروا مصابيح الهدي والقدرة.

ولذلك فإنه قبل الولوج في تعريف التصوف يرى قلة قليلة من علماء المسلمين الأوائل أن هناك فرقاً بين الصوفية والتصوف. إلا عند البحث عن معنى مصطلح التصوف وجب أن نعرف الصوفية بالمقام الأول ثم تعريف التصوف.

الصوفية:

لفظ (الصوفية) لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة الأولى للإسلام، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ؛ كالإمام أحمد ابن حنبل، وأبي سليمان الداراني، غيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه يكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري، وتنازعوا في المعنى الذي/ أضيف إليه الصوفي، فإنه من أسماء النسب؛ كالقرشي، والمدني، وأمثال ذلك.

فقيل: إنه نسبة إلى (أهل الصفة) وإن كان كذلك لقيل: صفي قيل: نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله، وإن كان كذلك لقيل: صفي. وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله، وإن كان كذلك لقيل: صفوي: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم، ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضاً؛ لأن هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النساك، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى، ولأن غالب من تكلم باسم (الصوفي) لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضي أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام.

وقيل أنه مشتق من الصفو بمعنى الصفاء أيضاً، وقيل إنه مشتق من الصف لأن الصوفية في الصف الأول أمام الله، وقيل إنه نسبة لأهل الصفة، وكانوا قوماً من فقراء المهاجرين والأنصار بنيت لهم صفة في مؤخرة مسجد الرسول، وكانوا يقيمون فيها وكانوا معروفين بالعبادة، وقيل إنه مشتق من الصفة، وقيل هو مشتق من اسم صوفة بن مرة أحد سدنه الكعبة في الجاهلية، وقيل من كلمة "SOFIA" اليونانية التي تعني الحكمة، وقيل غير هذا، ولكن الدراسة العلمية أثبتت أن هذه الاشتقاقات كلها بعيدة، والأصوب أن يقال إن اشتقاق الحكمة، وقيل غير هذا، ولكن الدراسة العلمية أثبتت أن هذه الاشتقاقات كلها بعيدة، والأصوب أن يقال إن اشتقاق كلمة صوفي من "الصوف" فيقال تصوف الرجل أي لبس الصوف، وكان لبس الصوف شعاراً للعباد والزهاد لأول نشأة الزهد، وكثير من الصوفية أنفسهم يذهبون إلى هذا الرأي الأخير، ومنهم السراج الطومسي في كتابه "اللمع"، ويؤيده ابن خلدون وآخرون.

وقيل. وهو المعروف: إنه نسبة إلى لبس الصوف؛ فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وأول من بني دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد (عبد الواحد بن زيد أبو عبيدة البصري شيخ الصوفية وواعظهم، لحق الحسن البصري وغيره. قال البخاري: تركوه. وقال النسائي: متروك الحديث. وقال الشيخ الجوزجاني: ليس من

معادن الصدق. توفي بعد الخمسين ومائة من الهجرة. [سير أعلام النبلاء ٧/ ١٧٨. ٨٠، ميزان الاعتدال ٢/ ٣٧٢، ٣٧٦].

كما اختلف في اشتقاق كلمة صوفي، وقد قيل: الظاهر من هذا الاسم أنه لقب إذ لا يشهد له من جهة العربية اشتقاق أو قياس، وقيل: هو مشتق من الصفاء، وهذا يشير إلى قول أبو الفتح البستي بقوله:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتي صافي فصوفي حتى لقب صوفي

ويقول ابن الجوزي: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عنه بعبارات كثيرة، حمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة.

وعلى ذلك يتضح أن المدرسة الأولى التي عليها التصوف الإسلامي هي مدرسة الزهد، وهي الأساس الذي قام عليه التصوف في كل أدواره. وكانت النواة التي تشعبت منها مدارس التصوف، وكان منهجها الأول هو تزكية النفس، ومخالفة الهوي، وحضور القلب، كل ذلك لتحقيق العقيدة في أسمى معانيها، وأسمى غاياتها، واستخدمت وسائل منها: ذكر الله ومحبة الله وقيام الليل، لذا أسماه البعض (علم تزكية النفس) أو علم التربية الروحية لأنه يحقق الغاية الكبرى في تحقيق مقام الإحسان.

التصوف:

كما دار الاختلاف في نشأة الصوفية واشتقاق معناها، تباينت الآراء حول مصدر تعريف الصوفية، وكان من الصعب أن يجمع الباحثون على تعريف واحد للتصوف، وحينما سأل رجال الشبلي: لما سميت الصوفية بهذا

الاسم: قال هذا الاسم أطلق عليهم، واختلف في أصله، ومعناه، ومصدر اشتقاقه، ولم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمه بعد.

ولذلك فإنه لم يتفق الكتاب والمؤرخون على تحديد الأصل الذي يمكن إرجاع اشتقاق لفظ التصوف إليه، ولعل من أبرز ما ذكر عن مسمى التصوف ما يلي:

إن التصوف حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعات فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كرد فعل مضاد للانغماس في الترف الحضاري، ثم تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرقاً مميزة معروفة باسم الصوفية.

وسئل عن المتصوف فقيل إنه هو من صفا من الكدر، وامتلأ من الفقر، وانقطع ألى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر، وقيل إنه تصفية القلب عن موافقة البرية، ومنازلة الصفات الروحانية، واستعمال ما هو أولى على الأدبية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة واتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الشريعة، كما قيل إن التصرف أوله علم وأوسطه عمل، وآخره موهبة.

ولعل هذا السبب المباشر في الهجوم على الصوفية إلى الآن، لأن كثير ممن هاجموا الصوفية، كان شغلهم الشاغل هو استنباط الآراء والأقوال التي تقدح وتذم فيهم، وتؤخذ عليهم، وتخرجهم عن منهج القرآن والسنة، دون الأخذ في الاعتبار، هل الذين قالوا هذه الكلمات من الصوفية؟ أم من المنتسبين إليهم وليسوا منهم؟ ودون الأخذ في الاعتبار موقف الصوفية المنصفين من هذه الأقوال، ودون النظر إلى إيجابيات التصوف، ودور الصوفية في نشر الإسلام.

فالتصوف الإسلامي من وجهة نظر الباحثة هو الدين الخالص والنية الخالصة لله التي قامت على مبدأ تحقيق العبودية وتعظيم الربوبية وتحقيق عمارة البواطن (بالمعارف والأسرار والرضا والتوكل والإخلاص) وعمارة الظواهر

(بالعبادة والورع والتقوى ومتابعة النبي (صلى الله عليه وسلم) في أقواله وأفعاله)، وهذا ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه من التحقق بالدين ظاهراً وباطناً، ورسوخاً في مراتب الدين الثلاث (الإسلام والإيمان والإحسان).

الفرق بين الصوفي والمتصوف عند مصطفى محمود:

أما مصطفى محمود فيعترف بأنه متصوف وليس صوفياً كما جاء في حديثه مع أحمد كمال الجزار حيث قال "لم يرغب دكتور مصطفى محمود أن أتكلم عنه كما كنت أريد لنكشف الجانب الذي لا يعرفه الناس عن حياته، وهو الجانب الصوفي، ومنعني من أن أطلق عليه حتى للفظ "صوفي" وإنما أجاز لي أن أكتب عنه كمفكر محب للتصوف ولأهل الله العارفين "حيث قال لي إن التصوف ليس معرفة وثقافة، ولكنه سلوك وعمل وتأمل في عالم الغيب والإيمان به عن تذوق وتزهيده في الحياة المادية الزائلة – وأكد ذلك بقوله إن التصوف هو لخاصة الخاصة.

ومما سبق يتبين أننا لو نظرنا إلى التصوف بنظرة تحليله شاملة نجد أن الصوفية على اختلافهم يتصورون طريقاً للسلوك إلى الله، يبدأ بمجاهدة النفس أخلاقياً ويتدرج السالك بعدة مراحل تعرف بالمقامات أو الأحوال، وينتهى بمقاماته وأحواله إلى المعرفة بالله تعالى، وتلك نهاية الطريق، وتعني الصوفية بالمقامات أي مقام العبد بين يدي الله فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات، ومن أمثلة تلك المقامات (التوبة – الزهد – الورع – الفقر – الصدر – الرضا – التوكل...) وما إلى ذلك، كما ذكر ابن الجوزي: رياضة النفس، ومجاهدة الطبع، برده عن الأخلاق الرذيلة، وحملة على الأخلاق الجميلة، من الزهد والحلم والصبر، والخلاص والصدق.

وتهدف هذه الدراسة إلى تكوين فكرة مجملة عن الآراء النظرية والتطبيقية البارزة التي حفلت بها مؤلفات مصطفى محمود في الأدب والفكر والثقافة وإعادة ترتيبها وفق تنظيم معين لاتجاه هذه الدراسة ليجعل منها نسقاً متكاملاً وبنية منسجمة تفسر وظيفتها، لذلك تقوم هذه الدراسة على عدة محاور نفصلها فيما يلي:

١- ملامح التصوف عند مصطفى محمود تجربة تربوية.

٢- الركائز الأساسية للطبيعة الإنسانية عند مصطفى محمود أسلوباً ومنهجاً.

٣- التطبيقات التربوية للتجربة الصوفية.

أولاً ملامح التصوف عند مصطفى محمود:

بدأت ملامح التصوف لدى مصطفى محمود تظهر عندما كان طفلاً صغيراً ضعيف البنية، فقد ولد بجوار السيد البدوي بمدينة طنطا، وقد ولد معه توأم وتوفي شقيقة بعد أيام من ولادته، فكانت الأمراض تتوالى عليه، وهكذا بدأ البلاء يصاحبه منذ النفس الأول من حياته، وهي علامة من علامات العناية الإلهية والابتلاء الخاص تصاحبه الرعاية الإلهية الخاصة، فلم ينهمك " مصطفى محمود" مثل أقرانه في اللعب واللهو، بل كان يجلس وحيداً دائماً، حائماً حالماص في شأن المستقبل، عالماً، مخترعاً، مفكراً، وعاش طفولته في شبه انطواء. فقد أثرت أسرته وأصبغته صبغة الإيمان فنشأ في أسرة فقيرة في الظاهر، غنية في الباطن من بركة وأنفاس والده الطيب فقال فيه "كان والدي يعمل محضراً في محكمة طنطا مرتبة ٨٠ قرشاً، فكان يحتفظ لنا بـ ٦٠ قرشاً، ويوزع الباقي على أقاربنا الفقراء، ولكن البركة كانت تسري في هذا المبلغ القليل، وكان أكبر مرتب حصل عليه ٢٠ جنيهاً، إلا أننا كنا نعيش في رغد من الحياة، ولا أقول إلا أن السبب كان بركة والدي وصلاحه، ورضاه بقضاء الله وقدره، وكان والدي يسير في حياته على الاعتماد على الله أولاً، والأخذ بالأسباب ثانياً، على الرغم من علمي وثقافتي فإنني أرى نفسي بجانبه مثل قطرة في بحر أو حصاة بجوار هرم كبير لذلك احتفظ له بذكرى طبية دائماً واعتز به، وأضعه مثلاً أعلى لي، ولذلك فإن ذلك ظهر جلياً في المركز الإسلامي فكل شيء باسمه مسجد محمود.... مستشفى محمود...

وسرت الأنفاس المباركة لهذا الرجل الصالح في ولده د. مصطفى وانطوت في باطنه حتى أذن الله لها بالظهور.

ولعل الكثيرين لا يعرفون أن مصطفى محمود منسب من أهل البيب، ولا يعرفون أيضاً أن اسمه الحقيقي "مصطفى كمال" وهو اسم مركب نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك أما باقي اسمه إلى الرسول فهو كالآتي: مصطفى كمال بن محمود بن حسين بن الحسيب بن عبد الله بن حمد بن علي بن عمر بن نصر الله بن هديب بن مالك الدار بن ناصر بن عبد العال بن محمد محفوظ بن حماد بن محمد طوق بن جعفر بن محمد الأمير حمد بن محمد الناصر بن يوسف بن إبراهيم بن عبد المحسن بن حسين المغربي (دفين فأس) بن محمد بن موسي بن يحيي بن عيسى بن علي التقي بن محمد الهادي بن الحسن العسكري بن علي العادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب زوج السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

منابع التصوف عند مصطفى محمود:

بدأت صلة مصطفى محمود بالتصوف بقراءة كتب العارفين بالله، أمثال ابن عربي والنفري وابن عطاء الله السكندري، وأبي حامد الغزالي، وغيرهم ثم أخذ العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندي في مكة حين سافر للسعودية عام ١٩٦٦ وقد أخذها تبركاً وليس سلوكاً عندما سمع أن الشيخ محمد متولي الشعراوي أخذ العهد من الشيخ محمد منذور النقشبندي، هي أنسب الطرق لأن مدارها على الذكر القلبي وأورادها وأحزابها قليلة ومشاغلة الدنيوية كثيرة جداً؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من صحبه الشيخ محمد منذور لمدة ست سنوات زارة في مكة من وقت لآخر، إلا أن مفكرنا يؤكد بأن لديه شيوخ مستورون تتلمذ على أيديهم من خلال كتبهم كحالة من الوجدانية والروحية، مثل تأثره الكبير بالنفري وكتابه (المواقف والمخاطبات)، وابن عربي وكتابه الفتوحات، وابن عطاء السكندري، وكذلك الإمام أبي حامد الغزالي وكتابه (الأحياء)، وابن مكزون السنجاري صوفي شيعي عراقي معتدل من خلال كتابه عن السلوك الصوفي.

إلا أن مصطفى محمود لم يكن عضواً أساسياً ضمن أي طريقة من الطرق الصوفية، وإنما كان يعجبه فكر الطريقة العزيمة على حد قوله، وأشعار الإمام أبي العزايم، ويؤكد بقوله أنه يوجد بعض الطرق تسير على منهج مستقيم، مثل الطريقة التفتازانية لمعرفته الشخصية بالعالم والعارف الكبير الملتزم بالكتاب والسنة أبو الوفا التفتازاني.

التصوف الخالص في مؤلفات مصطفى محمود:

كان مصطفى محمود دائماً يقول: في بحر الصوفية الإسلامية أجد جميع الينابيع وجميع الجداول وكل الأنهار، وأجد الإجابات لكل ما كنت أبحث عنه من مشاكل أزلية.

وهكذا تأتي مرحلة التحول الكامل إلى الإيمان وتتوالى مجموعة من كتب الإسلاميات: القرآن محاولة لفهم عصري. رحلتي من الشكك إلى الإيمان. الله. محمد. الكعبة. التوراة. الشيطان يحكم. الروح والجسد. حوار مع صديقي الملحد.

ثم بعد ذلك وفي أواخر السبعينات تأتي المرحلة الصوفية وفيها أقدم كتب عن التصوف خالصة أسميها الثلاثية الوصفية هي: (السر الأعظم. رأيت الله. الوجود والعدم. وأيضاً عظماء الدنيا وعظماء الأخرة – وزيارة للجنة والنار) وهنالك أيضاً أقدم أسرار القرآن، والقرآن كائن حي،.... ومجموعات قصص: نقطة الغليان، وأناشيد الإثم والبراءة، ومسرحيات مثل الشيطان يسكن في بيتنا، ومسرحية الطوفان.

ويؤكد بقوله من خلال كتبه أن "الدين ليس فيه هذا النوع السلبي من الطيبة، وليس فيه الاستسلام والخنوع والخضوع والاستكانة والذل، والذين امتدحوا هذه الصفات وظنوها تصوفاً أخطأوا، فهم التصوف أيضاً وانحرفوا به عن نقائه الإسلامي، فالتصوف الذي لا ينهض لمقاومة الظلم ليس له من الإسلام نصيب.

وإذا كان الاستعمار قد شجع في الماضي بعض الطرق الصوفية التي تروج للسلبية والضعف والخضوع والاستكانة فإن الكثير من الصوفين الأصلاء لم ينخدعوا ومن هؤلاء خرج جيش السنوسية يحارب الاستعمار الفرنسي في الشمال الأفريقي وقد حمل المصحف في يد والسيف في اليد الأخرى.

دور التصوف في حياة وكتابات مصطفى محمود:

التصوف هو مشربي تلك كلمات مصطفى محمود حينما سئل عن التصوف في كتاباته واستكمل قائلاً: أنا لا أضع نفسي في عداد الصوفية ولست من رجال التصوف، ولا أحسب أني وصلت للكمال النفسي الذي يصل إليه السالك ولا أمتلك الكمالات القلبية والروحية التي يصل إليها العارفون بالله، أما مجرد محب للتصوف والصوفية وقارئ لمؤلفات العارفين بالله، فلا أحب أن يكتب عني أني نموذج للولي المحقق السالك، فأنا عاشق للتصوف وليس أكثر من ذلك.

وعن البصمات الصوفية في حياته يقول: "لا معنى لحياة الإنسان ولا قيمة لوجوده إذا اقتصرت تحياته على التكرار المتعدد، دون تغيير وتفرد، ودون أن يصل إلى معرفة الله تعالى، وتحقيق العبودية له سبحانه، ونقصد بتعدد التكرار، تشابه الساعات والأيام والسنين، وتشابه الأفراد من حيث نمطية الحياة، فتكون أنت مثل الآخر لا فرق: ولادة – طفولة – مهنه – زواج – إنجاب – أولاد – وأحفاد – ثم الموت عبودية لرغبات الجسد من أكل وشرب ومتع دنيوية زائلة، وهذه ضرورات لابد منها، بل أصبحت غير متوافرة لأغلب الشباب في تلك الأيام، ونحن لا نقلل من شأن هذه الأشياء هي كل محور الحياة، ثم لا شيء بعدها، والملل والتكرار الذي يعيشه الناس لا وجود له إلا في العالم المادي، وحتى العالم المادي لا تكرار فيه، فهو من أثر تجليات الله، والله تعالى لا يتجلى مرتين في أقل من الثانية الواحدة وتجليه على الإنسان يتغير من نفس إلى نفس، وانظر إلى قلبك وما يجري فيه من خواطر، تجد أنها تبار سريع جداً من الصور التي لا تستطيع ضبطها لحظة، وهكذا كل شيء في العالم إذا أدركته البصيرة قال تعالى

(بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) [ق: ١٥]، فالخلق الجديد حادث في كل لحظة، ولو طهرت قلبك ومحوت منه صور الكون بالذكر والعبادة الشرعية لنزلت فيه الصور النورانية والمعاني والعلوم العرفانية، ووجدت تغييراً وسعادة وابتهاجاً معنوياً أكثر بكثير مما تحلم به وأنت جالس في غرفتك ولو كانت متراً في متر ستجد أن العالم كله عندك، لأنك نسخة من العالم، كما قال ابن العماد في كتاب كشف الأسرار عن الإمام الرديني:

وفيك سر نسخة الوجود فانظر فأنت أقرب الشهود

ولذلك فإننا لا نحتاج إلى ما يكسر الرتابة والملل والفراغ لأنها أمور موجودة في وهمنا، نتيجة غفلتنا وجهلنا، ولكن أين هذا الإنسان؟ هذا الأمر لا يأتي إلا بعد جهاد شاق، وقتل النفس ألف مرة وهو مقام لا يحدث إلا لأفراد معدودين، ولكننا نذكره تحفيزاً للهمم وتعريفاً بالحقائق، لعل هذا الكلام يقع في قلب إنسان مستعد لذلك فيعمل به.

ثانياً: مقومات الطبيعة الإنسانية عند مصطفى محمود:

من المعروف أن الطبيعة الإنسانية هي كل ما يحيط بالإنسان من صنع الخالق وليس للمخلوق يد فيه؛ وعليه فقد حظى موضوع "الطبيعة الإنسانية" بأهمية بالغة في الحقل التربوي الحديث والمعاصر، فقد سعي كثير من المربين والفلاسفة إلى تحديد الآليات التي تكون عناصر الكائن الإنساني الظاهرة منها والباطنة.

فالفلسفة عبارة عن نظام فكري ينشأ من بيئة اجتماعية معينة، ويتفاعل مع مشكلاتها ثم يحاول أن يرتفع فوق هذه المشكلات فكراً وتنظيماً، محاولاً إيجاد الحلول لهذه المشكلات.

وتعرف فلسفة التربية على أنها النشاط الفكري المنظم الذي يستخدم في تنظيم العملية التربوية وتنسيقها، وانسجامها، وتوضيح القيم والأهداف التي تسعى إليها في إطار ثقافي معين.

وعليه فإن التصور الإسلامي لحقيقة الألوهية وحقيقة الكون والإنسان والحياة هو أكمل وأشمل تصور عرفته البشرية، لأنه صادر عن رسالة الإسلام العالمية الخاتمة، إنه التصور الذي لا يأخذ جانباً من الوجود ويدع جانباً آخر، وإنما يأخذ الوجود كله بماديته وروحانياته، بشهوده وغيبياته وكل كائناته، لذلك فإن هذا التصور بشعبه الأربع (الله – الكون – الإنسان – الحياة) هو القاعدة والأساس الذي تبنى عليه منهج التربية الإسلامية.

ذلك التصور الذي يبدأ من حقيقة الألوهية التي يصدر عنها الوجود كله، ثم يسير مع هذا الوجود في كل صورة وأشكاله، وكائناته وموجوداته، يعني عناية خاصة بالإنسان – خلفية الله في أرضه – فيعطيه مساحة واسعة من الصورة ثم يعود بالوجود كله مرة أخرى إلى الحقيقة الإلهية التي صدر عنها وإليها يعود.

وتكاد تكون فكرة "الله" أن تكون هي الفكرة الأم في الإسلام، وحولها تنظم الأفكار الإسلامية الأخرى المتعلقة بالكون، والحياة الدنيا، والحياة الآخرة، مما يصل من قريب أو بعيد بحياة الإنسان.

ولذلك فإن التعرف على ملامح الفلسفة التربوية لأي مفكر لا يعني ذلك الإيمان الكامل لكل ما قدمته تلك الشخصية من أفكار ووجهات نظر، ولا التسليم الكامل لرؤيته وفلسفته في الحياة، إلا إننا نسعى للكشف عن الإيجابيات التي يمكن أن تفيدنا في عصرنا الحاضر واستخدام تلك الاجتهادات التي توصل إليها المفكر من خلال الممارسة الفعلية، لذلك نتناول فلسفته من خلال عدة مباحث ألا وهي: مبحث الوجود متمثل في (الله – الكون – والطبيعة الإنسانية – المعرفة – القيم).

أ- مبحث الوجود:

المراد بمبحث الوجود هو البحث في طبيعة الوجود على الإطلاق أي الخاصية المشتركة بين جميع الموجودات والتي بسببها يقال عن الشيء أنه موجود، ومعنى ذلك أن البحث في الموجودات يتناولها من ناحية صفاتها ومميزاتها وخصائصها المختلفة.

أو يتناول معنى واحد فقط هو كون هذه الأشياء موجود فحسب، ويرجع مبحث الوجود أو الأنطولوجيا من حيث الموضوع إلى الفلسفة الأولى لدى أرسطو التي كان موضوعها النظر في الموجود بما هو موجود أي مجرداً من حيث هو موجود.

وعلى جانب آخر نجد أن بعض مؤرخي الفلسفة قد وحد بين مبحث الوجود وبين ما بعد الطبيعة باعتبار أن كلا منها يدرس الوجود على الإطلاق، كما أن بعضاً منهم قد وحد بين ما بعد الطبيعة ونظرية المعرفة، وذلك باعتبار أن الصلة بين المعرفة والوجود وثيقة لأن البحث في قدرتنا على معرفة الأشياء يسلمنا إلى البحث عن مقومات الوجود وماهية الحقيقة.

أما في هذا البحث فإننا نبحث في الوجود باعتبار أن الله مسئول عن كل شيء بالوجود ومدى تفاعل الإنسان في الكون المحيط به ومعرفته به وقدرته على التفاعل مع المؤثرات الخارجية المحيطة به في الكون.

ب– الله:

لقد جاء الإسلام بالذروة في المعارف الإلهية إلا أنه قد جاء بالتوحيد ذاته الذي جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وبالعقيدة والكلمة ذاتها (لا إله إلا الله)، وفي قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام: ٧٣].

وفي الحديث الشريف (قال رسول الله أي الذنب أكبر عند الله؟ قال أن تدعو لله ندا وهو خالقك) [صحيح البخاري: كتاب الديات]، وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة قال سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) قال الله عز وجل (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبه أو شعيرة).

ولذلك فإن التوحيد عند الصوفية هو أساس العلاقة بين الإنسان وبين الله حيث إنه يتضمن فكرتين أساسيتين:

الأولى: هي الألوهية وهذه تتعلق بخصائص وصفات الألوهية في ذاتها بعيداً عن خلق الله للخلق من عدمه.

أما الثانية: فهي الربوبية وهي تتضمن الاعتقاد بأن الله وتحده خلق الخلق ويدبر أمره ويربيه، فمعنى الربوبية لا يتحقق إلا في الارتباط بالخلق.

ومن ثم فتوحيد الربوبية من أهم ما يميز العقيدة الإسلامية، وما ينبني عليها من فلسفة تربوية عن الفسلفات الأخرى، فالإله في الإسلام ليس بمعزل عن الكون بما فيه ومن فيه كإله أرسطو الذي عرفه الفكر اليوناني القديم لا يعرفه الإسلام، وإنما يعرف إلهاً قال: (خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) [طه ٥: ٤]).

فالإله في الإسلام هو خالق كل شيء، ورازق كل حي، ومدبر كل أمر أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً خلق فسوى، وقدر فهدى يسمع ويرى، ويعلم السر والنجوى.

ومجمل ما يقال في عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام أن الذات الإلهية غاية ما يصور العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات، وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) (ليس أحد – أو ليس شيء – أصبر على أذى سمعه من الله، أنهم ليدعون له ولداً، وأنه ليعافيهم ويرزقهم [صحيح البخاري: كتاب الإيمان]).

زمن منطلق تلك الفلسفة تكون فكر مصطفى محمود وحين تحدث إلى ذاته وطلب منها أن تقف بين يدى الله عز وجل قال لها في نفسه: "إذا جاءك القلم ليقول لك اتبعني فأنا عندي العلم، واسمع مني فأنا الذي أسطر الأسرار، وسلم إلى فلن تجاوزني ولن تدركني فقل له، عني يا قلم، أبدأني من أبدأك، وأجراني من أجراك، وخلقني من خلقك، وأنا منه أسمع لا منك وله أسلم لا لك، وإن سمعت منك ظفرت بالحجاب، وإن سلمت لك ظفرت بالعجز، وإن تبعتك وقعت في الحدود وتفرقت في الجهات.

وإذا جاءك العرش بعظمته وأبهائه وملائكته المسبحة ليدعوك إلى نفسه، فقل له عني يا عرش، موقفي ليس عندك ولا مقامي حولك، وإنما موقفي عند الله الذي خلقك وهو أعظم منك في مجال العظمة وبهاؤه منه وعظمته منه لا من سواه.

ورد عليه ربه في حواره مع نفسه قائلاً: إذا أردت ألا يخطر بك سواي وإذا أردت أن تخرج عن كل ما بدا فأقم في "النفي" في عتبة لا.. لا إله إلا الله.. وأعلم أن النفي لا يكون إلا بي.. كما أن الإثبات لا يكون إلا بي.. وإني أنا الذي سوف أنفيك بفضلي عن "السوي" وسوف أثبتك بنعمتي في جواري وعنديتي، قف في حضرتي لا لتسمع مني ولا لتعرف مني ولا لأخاطبك وإنما لأنظر إليك وتنظر إلى.. فلا تزال في هذا الموقف حتى أحادثك فإذا حادثتك قابلت على ما فاتك من خطابي في غابر عمرك، وإذا وقفت في حضرتي لا تخرج عن مقامك حتى لو جاءك في رؤيتي هدم السماوات والأرض ما تزيلت.

وإذا عرفت كيف تقف بين يدى لذاتي ووجهي وليس لأي غرض من محادثتي أو خطابي فقد عرفت جلال حضرتي، ومن عرف جلال حضرتي حرمته على سواي وجعلته من أهل صيانتي، وإذا جاءك الوارد "الخاطر الرباني" فقل يا من أورد الوارد أشهدني ملكوت برك في ذكرك وأذقني حنان ذكرك في إشهادك.

وعليه فإنه يتأكد لدينا حقيقة واحدة أننا بنسبنا الحقيقي ننتسب إلى الله بحكم ما نفخ فينا من روحه وإليه مرجعنا ولا معنى لأي عصبية أو عرقية أو قومية.. ولا معنى لأن يقول كل واحد منا أنا.. فتلك جميعها انحرافات عن الطريق وسبل ملتوية جانبية تضيع علينا طاقاتنا وحياتنا.

ولن يحفظ علينا حياتنا وقوتنا وطاقتنا سوى أن ننتمي وننتسب من البداية إلى الله خالقنا ونمتثل لقانونه وشريعته ونلتزم ونجعله همنا ومقصدنا.

وذلك هو الفكر التوحيدي الذي يجمع شمل النفس وشمل جميع الأنفس وشمل الأمم في مسيرة واحدة مباركة سبيلها العلم والعمل.

ولذلك فإنه تعليقاً على ما سبق يتأكد لدينا أن وحدة الوجود والقائل بها فإن كان قصد بها معنى سليماً سلمنا له بذلك وهو المعنى الذي يقول: وحدة العبودية لله تعالى فالكون كله متحد في هذه الحقيقة فإن كل ما سوى الله تعالى هو عبد له، أما من جعل العبد هو عين المعبود فقد زل وضل ودخل في الكفر والجهل والشرك بالله تعالى.

أ- الكون:

أن فكرة الكون ليست معزولة عن فكرة الله في الإطار الأيدلوجي الإسلامي، وإنما هي فكرة متكاملة لها وذلك لأن الكون هو موضوع قدرة الله سبحانه وتعالى، بمعنى أنه إذا كان الله سبحانه وتعالى خالقاً فإن خلقه هو هذا الكون، وإذا كان الله سبحانه قادراً فإن قدرته تتبدى في هذا الكون القائم.

والكون في التصور الإسلامي قسمان: كون محسوس وكون غير محسوس، شهادة وغيب، قال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) [الحشر: ٢٢].

هل معنى هذا أننا سوف نكتشف يوماً ما أن الوجود مرتب في سبع درجات في جميع حالاته، وأن هناك سلماً يكرر نفسه من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، سبع سماوات وسبع أرضين، مثلما للضوء سبع درجات والصوت سبع نغمات والإلكترون سبعة أفلاك، وإن ما ورد في القرآن حول الرقم سبعة (عن جهنم التي لها سبعة أبواب وعن الأرضين السبع والسماوات السبع وعن سبع سنوات عجاف وسبع بقرات سمان وعن استواء الله على عرشه في اليوم السابع من أيام الخلق).. كل هذه إشارات إلى هذا السر الخطير من أسرار الكون.

العدم والوجود في كتابات مصطفى محمود:

هل هناك ما سوى الله..؟؟

ذلك كان السؤال وكان رد مصطفى محمود.. نعم هناك العدم.. فما سوى الله عدم، والعدو هو الوجه المقابل للوجود كالظلمة في مواجهة النور والسالب في مواجهة الفاعل وكالمرآة في مواجهة الشمس.

وفي العدم حقائق أزلية قديمة هي شئون الله، ونحن كلنا كنا حقائق في العدم أخرجها الله برحمته وأعطاها لبسة الوجود وجعلها محلاً بتجليات أسمائه وصفاته.

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) [الأحزاب: ٤٣].

(قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) [مريم: ٩].

وهذا الخلق الدائم المتجدد وإخراج الحقائق من العدم إلى الوجود، ومن الظلمة إلى النور هو شئون الله.

والله هو الوجود المطلق الذي يستحيل عليه العدم.. فلم يبق إلا أن يكون العدم هو (الغير)، والسوي بالنسبة لله.. وأن تكون النظرة الثنائية نظرة لا غنى عنها لفهم الأمور.

ولكنها نظرة ثنائية لا تنفي وحدة الوجود.. فالوجود كله لله ولا (وجود) لغيره ولا فاعل غيره طالما أننا وصفنا الغير بأنه (عدم) وبأنه (قابل) وليس فاعلاً.

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [البقرة: ١١٥].

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) [النساء: ١٧١].

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ) [الحديد: ٣].

ووحدة الوجود بهذا المعنى هي وحدة وجود إسلامية بحته، وأن ذات العبد حقيقة وأنها إمكان بحت قابل لجميع الاحتمالات، وأن العبد ينوي ويضمر ويتوجه بالإرادة إلى حيثما تسول له نفسه، ولكنه لا يستطيع أن يفعل في علم المادة والواقع إلا بمعونة الله وقيوميته سواء علم بذلك أم جهل.

والله بقيوميته وقدرته يخرج نية العبد وسريرته إلى عالم التحقيق، فيعاونه على تحقيقها على حالها خيراً كانت أم شراً دونما تدخل إلا إذا أراد العبد تدخل الله وطلبه باللسان أو القلب أو الدعاء. والله يغير من عبد إلا إذا طلب العبد أن يتغير وأسلم نفسه وذاته راضياً مختاراً محباً وهذا هو الموت قبل الموت أو الفناء بين يدي الرب وخلع الاختبار وخلع الإرادة الصغرى تسليماً وإيماناً وتصديقاً وثقة بالإرادة الكبرى. وهذا هو المشي إلى الله على الصراط والخروج من الهلاك إلى النجاة.

وهذا خلاصة ما قاله العارفون في مسألة العدم. أما الوجود (الله) فقد سبق أن قلنا إنه حضرة أحادية ذاتية في غيب الغيب.

فالوجود والعدم كانا من البداية كالحقيقة والمرآة. فالحقيقة فاعلة والمرآة قابلة ناقلة ولكنها سالبة لا تضيف من عندها شيئاً ولا تقدر بذاتها على شيء سوى أن يظهر فيها الأمر على ما هو عليه.

ومن جملة كمالات الله أنه يحيي ويميت وأنه له القدرة على إمداد كل نفس قابلة على قدر قبولها واستعدادها من مدد الوجود والحياة.

(وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) [إبراهيم: ٣٤].

وكل ذات ممكنة في العدم تسأله بلسان الحال أن يرحمها بإيجادها فيوجدها ويهديها إلى معرفته.

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) [طه: ٥٠].

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى) [الليل: ١٢: ١٣].

وهو يعطي كل نفس خلقها وقالبها الذي تستحقه ثم يهديها ويواصل إمدادها ويجدد خلقها آن بعد آن.. (مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا) [هود: ٥٦]، هكذا تستمر علاقة ربنا بمخلوقاته وتستمر عنايته بها جميعاً بأنفاسه الرحمانية.. ولو تخلى عنها لعادت عدماً كما كانت ومازالت فكل منا لا يملك من نفسه إلا العدم.. إنما نتحرك ونسمع ونبصر ونعقل بنور الله ومدده.

وما أجمل وأعمق الموحد الذي يقول: (ما وحد الأحد أحد)

فالله سبحانه هو الذي وحد ذاته بكلماته وأفعاله وآياته الدالة عليه، وآياته هي التي هدتنا إلى توحيده، فما وحد الأحد أحد في الحقيقة سوى الأحد.

كما يقول أيضاً الصوفي المتأمل في أحوال الكثرة في عالم الدنيا.

(الكثيرة في عالم الفنا هي التي أوجبت لبعضها البعض النطق بأنا)

ويقول إن لفظة أنا هي لسان فردانيه الله في الأفراد الذي تحير منه المتعلم والعالم كما تخرج الثمار المتعددة الطعوم والروائح من الماء الواحد الذي لا لون له.

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) [الرعد: ٤].

كل بذرة تأخذ وتعطي من النبع بقدر استعدادها والكل صادر من ثراي الذات الإلهية اللانهائي..، كما يقول ابن عطا الله السكندري:

(إلهي ماذا وجد من فقدك وما الذي فقد من وجدك.. لقد خاب من رضي دونك بدلاً، وقد خسر من بغى عنك متحولاً، وقد خسر من بقى عنك متحولاً، إلهي كيف نرجي سراك وأنت ما قطعت الإحسان، أم كيف يطلب غيرك وأنت ما بدلت عادة الامتنان).

بهذه اللمسات النورانية تمضي بنا رحلة التصوف لتضيف إلى المعرفة الإلهية وإلى التوحيد عمقاً وشاعرية وحرارة.

الطبيعة الإنسانية:

تعني كلمة الطبيعة في الكون هي كل الظواهر الموجودة فيه، وكانت كلمة (Natura) ترجمة لاتينية للكلمة الإغريقية (Physis) التي تعني "الصفات الجوهرية والنظام الفطري" ولكنها تعني "الميلاد" حرفياً. ويمكن اعتبار العقل المبدع جزءاً لا يتجزأ من "الطبيعة البشرية". أو التي ترتبط بشكل أساسي بالخصائص الجوهرية التي تقوم عليها النباتات والحيوانات وغيرهما من مخلوقات العالم وتطويرها بكامل إرادتها دون تدخل.

ولقد اهتم مصطفى محمود بقضية "الطبيعة الإنسانية بأبعادها"؛ وعالجها في كتاباته من مختلف جوانبها، واتسم بها فكره العميق غير أن أغلب كتبه قد تناولتها من جميع مكوناتها مثل (الإنسان، الروح، والقلب، والعقل والنفس، والحقائق الغيبية عن النفس (كالموت والملائكة) كما أنه لم يغفل بعداً لا يقل أهمية عن الطبيعة الإنسانية ألا وهو المعرفة عن طريق العلم.

والاتجاه التربوي الصوفي ينطلق في نظرته لمكونات الذات الإنسانية من تحديد ثلاثة مكونات أساسية هي: الروح، والنفس، والقلب، ويتم التفاعل بين هذه المكونات على أساس الصراع بين الروح والنفس في القيادة والقلب تابع ومتوجه إلى من تنحسم مادة الصراع إلى صالحه من خلال توجيه العقل وسيطرته على الإنسان لصالح الخير له، وهذا يتطلب معرفة وجهة نظر الصوفية في ماهية مفردات التكوين ومراتبها ليتم تفسير التطبيقات التربوية في ضوء وجهة نظرهم لمكونات الإنسان.

الإنسان:

يعتبر الإنسان (بكافة مكوناته) المادة الخام التي يقع عليها فعل التربية، فهي تتوجه إليه بكافة مؤثراتها وأطرها الفكرية وأساليبها العملية لتتولى تشكيله وبناءه. ولكي تنجح التربية في هذه المهمة لابد أن تنطلق من تصور واضح لمكونات الذات الإنسانية وأبعاد التفاعل بينها كي يتسنى صياغة المناهج واختيار الأساليب بما يتناسب مع هذا التكوين.

ولذلك فإن الإسلام في بنائه لمجتمعه يهدف إلى إقامة الحياة المتوازنة التي تتجلى فيها خصائص الفطرة وتتسق مع دور الإنسان في الحياة على أساس نظرته للإنسان وإدراكه لرسالته، فهو يرى في الإنسان كائناً متميزاً يجمع إلى جانب طاقته المادية طاقة روحية وعلى ذلك فإن المحاولات المختلفة لدراسة الطبيعة الإنسانية في الإسلام تبدأ من المنطلق الإسلامي بأن الإنسان هو خليفة الله في الأرض. وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٣٠]، وقد يتساءل الإنسان لماذا خلق الله الإنسان؟ وما هي الغاية من حياته؟ فأما سبب خلق الإنسان فقد ذكر الله تعالى في قوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات: ٥٦]، أما الغاية في حياة الإنسان فهو أن يحيا الحياة الكريمة التي تعينه على تحقيق سبب خلقه بأن يحيا الحياة السعيدة التي تساعده على عبادة الله، وكل حياة تبعد الإنسان عن تحقيق هذه الغاية فهي حياة خاسرة فينبغي على الإنسان أن يتطلع إلى المثل العليا ويتجه بكل طاقته نحو تحقيقها، ولذلك فإن نظرته إسلامية تتفق مع الدين وأصوله.

وفي ضوء ما سبق يتضح أن الإنسان في الإسلام مسئول عن أمانة الخلافة والوفاء بتبعاتها، والإسلام في ذاته قوه باعثة على انتشار الأخلاق فكراً وسلوكاً ودعوة، ويحرص على أن يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الإطار الفكري والمنهج السلوكي العملي الذي يحكم سلوك الفرد.

ولعل الحديث عن الطبيعة – التي تركز على الإنسان – من وجهة نظر دينية في الفكر العربي، قد يوحي أساساً بفعل الخالق أو الصانع المبدع الذي تدبر سنته الكونية سائر المخلوقات تدبيراً إرادياً.

وقد أكد ما يجعل الإنسان يعيش مضطرباً بين عالمين: عالم إراداته الحرة بداخله، وعالم المادة حوله الراسف المغلول في القوانين، ولهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات والظروف الخارجية، بل إن هذه المقومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن تكشف حريتنا عن مدلولها في الخارج إلا بوجود عقبات تزحزحها وتتغلب عليها. إنها تكشف عن مدلولها من خلال صراع وبدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى، والضوابط الخلقية والقوانين الاجتماعية لا تنفي الحرية وإنما هي أشبه بعلامات المرور. وضعت لتنظم المرور وتفسح أكبر حرية للكل، وأنت حينما تقيم الضوابط على شهوتك تكسب حريتك لأنك تصبح سيد نفسك لا عبداً لغريزتك، أما حرية القمار والسكر والعربدة والمخدرات والتبذل الجنسي فهي ليست حريات وإنما درجات من الانتحار وإهدار الحياة وبالتالي إهدار الحرية.

ولذلك فإن من خلال ما سبق يتضح أن كل اختيار ضد الحياة لا يكون اختياراً، وكل اختيار ضد القانون الطبيعي ليس اختياراً وإنما إهدار للاختيار، وكلنا نعلم أننا إذا أردنا أن نزداد حرية ونحن نسبح لاخترنا السباحة مع التيار وليس ضده.

ونخلص من هذا إلى أن حرية الإنسان حقيقة برغم ما يقوم حولها من حدود ومقاومات، وأن الإنسان حر حرية مطلقة في منطقة ضميره، فهو يستطيع أن يضمر ما يشاء، وحر حرية نسبية في التنفيذ، في منطقة الفعل والعمل بحسب ما يقوم حوله من حدود ومقاومات، وسبيله الوحيد إلى فعل حر هو معرفة هذه القوانين والفطنة إلى استغلالها بالوفاق معها، وهو دائماً أمر ممكن.

ولذلك فإن الله يتركنا ولو اخترنا العمى على الهدى.. وقد سبقت بهذا مشيئته، بل فعل بنا أكثر من هذا، فخيرنا حتى في أن نختار، عرض علينا هذه الأمانة (وهي الحرية والمسئولية) عرضها لنقبلها أو نرفضها منا نشاء وهي الأمانة التي رفضتها الجبال فحمل الإنسان الأمانة التي رفضتها الجبال.. وكان بنفسه جهولاً ظلوماً.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) [الأحزاب: ٧٢].

ولقد جهل الإنسان تبعية هذه الأمانة وأهوالها ومهالك الغرور التي سوف يتعرض لها بحملها، وكيف أنه سيظلم بها نفسه وغيره، ولكن الله كان يعلم بهذه المحنة الهائلة، وكان يعلم أن هذه المحنة سوف تزكي الإنسان وتطهره وتربيه، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) [البقرة: ٣٠].

ولكننا لا نعرف كيف تم هذا العرض على الإنسان بأن يكون حراً أو لا يكون، ولا متى تم هذا العرض، هل حدث في مبدأ الخلق مع آدم؟ أم مع الأرواح قبل نزولها إلى الأرحام؟ فهذا غيب مطلق، والقرآن يكتفي بأن يعطي ومضة، ولمحة.

وبهذه الحرية التي قبلها الإنسان مختاراً حقت عليه المسئولية والمحاسبة، وأشار القرآن لهذا في آيات حاسمة قاطعة:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) [المدثر: ٣٨]

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) [المدثر: ٣٨]

(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا) [الإسراء: ١٣].

(قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ) [سبأ: ٢٥].

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) [النجم: ٣٨].

ومن المعروف أنه لا يستطيع أحد أن يفتدي آخر أو يحمل عنه ذنبه وإنما لكل عمله وعلى كل وزره.

وبمقتضى هذه الحرية جعل الله من (ضمير الإنسان ونيته وسريرته) منطقة محرمة وقدس أقداس لا يدخلها قهر أو جبر، وقطع على نفسه عهداً بأن تكون هذه المنطقة حراماً لا يدخلها جنده.

ويؤكد مصطفى محمود بأن القرآن يشرح لنا معنى اتباع الإنسان لهدى الله، وذلك بأن يفطن الإنسان إلى خطئه ويعود إلى الجنة التي ضيعها أبوه، جنة الطاعة والإسلام للنواميس الإلهية. وهذه هي الإنابة والرجعة التي تتكرر في كل صفحة في القرآن، أن يفطن الإنسان إلى أنه لا يملك إلا ضميره (قدس الأقداس الذي تركه الله حراً بالفعل) فيسلمه خالصاً لله ويتجه به مختاراً طائعاً، وقد وكل أمر نفسه إلى خالقه وخضع لنواميسه، وبذلك يكون أفضل من الجمادات ومن النجوم في مداراتها التي تسلم نفسها لسنن الله وقوانينه قهراً وبلا اختيار، على حين يسلم هو نفسه لربه محبة واختياراً وطواعية.

يفعل هذا وقد أدرك أن مشيئة الله واقعة إن طوعاً وإن كرهاً، وأن الله هو الخالق المهيمن على جميع الأسباب وأنه هو الوحيد الذي يملك الهداية والعلم والقدرة والضمير.

العقل

يشكل العقل أحد مكونات الذات الإنسانية والعنصر الهام الذي تقلد به الإنسان الخلافة عن الله في الأرض، فبالعقل أصبح للإنسان شأن مقدر عند الله تعالى، لم يكونا لغيره مما نعلم من مخلوقات الله في الأرض أو في السماء، فالعقل في حقيقته نور في القلب، ومهمته أن يعرف الحق من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح.

لذلك فإن من أعظم النعم التي أكرمنا الله بها نعمة العقل؛ العقل الذي وهبنا الله إياه لنمتاز به عن الحيوان الأعجم والصخر الصلب، فبالعقل يشرف الإنسان، وبالعقل يكلف المرء، وبه يعرف خالقه جل شأنه، ذلكم العقل الذي يميز به بين الخير والشر والهدى والضلالة، إذا استعمله الإنسان كان سبباً في سلوك طريق الهدى، والبعد عن موارد التردي، فالعقل يعد من أكبر الطاقات البشرية على الإطلاق، إنه لنعمة عظمى وسمة جلى امتن الله بها علينا قال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) [الملك: ٢٣].

وسخر الله كافة مخلوقاته للإنسان بسبب قدرته على التفكير، وصدق الله العظيم حيث يقول (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [الجاثية: ١٣]، هذا التسخير للإنسان الذي يفكر ويتدبر ويتأمل، فإذا كان لا يفكر ما استحق هذا التسخير، ولذلك نجد من شروط التكليف الصلاة والصياح والحج أن يكون عاقلاً.

ولذلك فإن الإنسان لم يخلق ويوهب هذه المواهب ويعطي هذا العقل عبثاً بل أعطى هذا العقل وأعطى مفاتيح الأسباب والمسببات والفهم بأسرار الذرة والقوى الباطنة فيها ليمتحن، وليعرف ماذا سيفعل بهذه القوى، وفيم سيوظفها. هل ليقتل ويسفك الدماء ويغزو ويستعمر ظلماً وعدواناً ويسلب الضعفاء ثرواتهم أم ليدرس ويتعلم ويعاون الضعفاء ويعالج المرضى ويفك آسار المأسورين؟ وبقدر ما أعطى هذا الإنسان بقدر ما سيكون حسابه وبقدر ما انحرف هذا الإنسان سيكون عقابه، ولذلك فإن الله لم يكن يلهو حينما خلق هذا الكون العجيب وحينما خلق هذا الإنسان ليستعمله لعمارة الكون، وقال تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) [الأنبياء: ١٦]، (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) [الدخان: ٣٨] والتكرار في الآيتين يؤكد المعنى.

النفس

إن البحث عن مفهوم النفس وحقيقتها يعد من أكثر الموضوعات التي شغلت الفكر الإنساني ورعت انتباهه عبر تاريخ الحياة البشرية، وقد تعددت الآراء والأفكار حول هذا الموضوع من خلال كثير من الدراسات والأبحاث قديماً وحديثاً، قدم فيها الفلاسفة والمفكرون جهداً وبذلاً على مختلف اتجاهاتهم الفكرية، ومذاهبهم الدينية، وجاءت آراؤهم متباينة ومختلفة، حتى كاد أن يستقل كل واحد منهم برأي، وسيبقى هذا الاختلاف والتباين طالما أن الفكر البشري يسعى للوصول إلى معرفة الحقيقة والكيفية.

ولعل الحقيقة التي انفردت بها النفس الإنسانية دون صنوف الوجود المادي، أنها تملك قدرة داخلية على التملص من اللابد واللابد واللازم، والضروري، والمحتوم، وأن الإرادة الإنسانية لها حريتها في أن تخل بأي تعاقد، ويستحيل التنبؤ بما يجري في منطقة الضمير؛ لأنها منطقة حرة بالفعل، ولا شيء يحاول بين الإنسان وبين أن يضمر شيئاً في نفسه. إنه المخلوق الوحيد الذي يملك ناصية أحلامه، ولكن هذه الحرية البكر الطليقة في الداخل ما تلبث أن تصطدك بالعالم حينما تحتك به لأول مرة في لحظة الفعل.

وقد ورد للنفس في القرآن الكريم عدة نعاني فمنها:

- النفس بمعنى الإنسان جسمه وروحه وعقله، قال تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) [البقرة: ٤٨].

- النفس بمعنى الروح، قال تعالى: (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ) [الزمر: ٤٣].

- النفس بمعنى الهوى والرغبة، قال تعالى: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) [يوسف: ٥٣].

ويؤكد مصطفى محمود على حقيقة النفس: إن حديث النفس حقيقه لا شك فيها... وهو نوع من الإعجاز الرباني.. فهو حديث داخلي لا يسمعه غيرك أي نفسك، ولا يطلع عليه سواك.. ولا يستطيع أي جهاز إلكتروني بشري أن يسجله عليك.. والنفس فيه طرف.. والطرف الآخر يمكن أن يكون النفس ذاتها.. ويمكن أن يكون الشيطان.. وإبراهيم الكليم أبو الأنبياء كلمه ربه.. وهكذا ترتفع المكالمة لكل نفس على حسب قدرها ومستواها. يقول ربنا محادثاً موسى: (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) [الأعراف: ١٤٤]، وحينما تكون وساوس النفس من المستوى الشيطاني.. يمكن أن يكون الشيطان طرفاً في الحديث.. وحينما ترتفع النفس إلى المستوى الملائكي.. يمكن أن يكون القرين المتحدث ملائكياً.. وكلما ارتفع مستوى الحديث ارتفع مستوى المتحادثين.

وإنما الخطر الأكبر الآن هو من عبادة النفس وعبادة الهوى وعبادة المال وعبادة السلطة وعبادة النظرية وذلك هو وباء اليوم.

ولذلك فقد اختلفت التفاسير والعلم عند الله، ولكن تظل القضية الثابتة أن النفس حقيقة الحقائق، وأنها تنتقل في الأحوال وأن الجسد يبلي ويموت في حيت هي تموت، وأنها مناط المساءلة، وأننا لم نخلق سدي:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) [المؤمنون: ١١٥].

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) [القيامة: ٣٦].

إن خلق كل شيء كان بالحق وللحق، وإن الحياة خلقت لتستمر بعد الموت في كيفيات لا تعلمها، وإن الرواية لن تنتهي بالموت بل سوف تتعدد فصولاً إلى ما لا نهاية حيث تكون الغاية هي اللقاء بالله في الإطلاق.

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) [الانشقاق: ٦].

فالكدح سوف يتصل إلى ما لا نهاية عروجاً إلى الله في المطلق، وتلك هي الهجرة التي أرادها الله، لجميع الأنفس وما أشرفها وما أعظمها من هجرة وما أهون المشتقات، وما أهون عثرات الطريق إذا كان الموعد الله وهل بعد الله غاية. تبارك الذي ليس كمثله شيء.

الروح

الروح إحدى مكونات الطبيعة الإنسانية، ولم يخلق الله – عز وجل – مخلوقاً بالنفحة الإلهية سوى الإنسان فهي سر تكرينه، وهي السر الإلهي الذي يصير به الطين والصلصال بشراً سوياً ولذلك فإن هناك من يقول إن الإنسان جسد فقط وهناك من يقول إن الإنسان روح ويقول الله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: ٨٥].

ولذلك تأتي فكرة الحتمية الخاطئة من التصور الخاطئ للإنسان على أنه جسد بلا نفس وبلا روح وبلا عقل. واعتبار النفس والعقل مجرد مجموعة الوظائف العليا للجهاز العصبي.

ومن الواقع المشاهد من خضوع الجسم للقوانين الفسيولوجية يستنتج المفكر المادي أن الإنسان والإنسانية بأسرها مغلولة في القوانين المادية، وهكذا يجعل من الإنسان كتلة مادية أشبه بكتلة القمر محكومة في دورانه حول الأرض والشمس بالحتميات الفلكية، وينسى أن الإنسان يعيش في مستويين.

مستوى الزمن الخارجي: الموضوعي المادي.. زمن الساعة.. وفي الزمن يرتبط بالمواعيد والضرورات الاجتماعية ويعيش في أسر القوانين والحتميات.

ومستوى زمنه الخاص الداخلي: زمن الشعور وزمن الحلم.. وفي المستوى يعيش حياة حرة بالفعل.. فيفكر ويحلم ويبتكر ويخترع ويقف من كل المجتمع والتاريخ موقف الثورة.. بل يستطيع أن ينقل هذه الثورة الداخلية إلى فعل خارجي فيقلب المجتمع ويغير التاريخ من أساسه كما حدث في كل الثورات التقدمية.

هذه الثنائية هي صفة ينفرد بها الإنسان، وهذه الحياة الداخلية الحرة يختص بها الإنسان دون الجماد، وهذه النفس التي يملكها تتصف بصفات مختلفة مغايرة لصفة الجماد.. فهنا نحن أمام وحدة لا امتداد لها في المكان.

وانفس لا يمكن أن تكون مجرد ناتج ثانوي من نواتج الجسد وذيلاً تابعاً له ومادة تطورت منه مثل هذه النظريات المادية لا تفسر لنا شيئاً.. فالنفس عالية على الجسد متعالية عليه.

ولابد أن يتداعى إلى ذهننا الاحتمال البديهي من أن هذه النفس لا يمكن أن يجري عليها ما يجري على الجسد من موت وتأكل وتعفن بحكم جوهرها الذي تشعر به متصفاً بالحضور والديمومة والشخوص في الوعي طوال الوقت.. فلا تتآكل كما يتآكل الجسد ولا هي تقع الشعر ولا هي تبلى كالإنسان.

وإنه لأمر بديهي تماماً أن نتصور بقاءها بعد الموت، ولذلك فإننا نعلم بالبداهة وبالفطرة التي ولدنا بها أن العدل والنظام هو ناموس الوجود وأن المسئولية هي القاعدة.

المعرفة:

لقد عالج الإسلام والتصوف الطبيعة الإنسانية بفلسفة تربوية نابعة من خطاب قرآني وسنة نبوية، والملاحظ أن الإسلام اهتم في توجهه التربوي بالفرد ثم حاول ضبط هذا الكائن داخل الفئة الاجتماعية، وهذه الأخيرة تعتبر جزءاً من الأمة عامة، وإذا تأملنا القرآن فإننا نلاحظ تركيزه على مسألة المعرفة على اعتبار أنها جزء أساسي من الطبية الإنسانية وهي: معرفة الله/ معرفة الكون/ معرفة الجنة والنار. ومصدر هذه المعرفة كتاب ناطق وخبر مجتمع عليه (السنة).

ويرى مصطفى محمود أن المعرفة أعلى من العلم، والوقفة نهاية في المعرفة، بينما يرى ابن عربي أن العلم أرقى من المعرفة، ونحن نتكلم عن العلم بالله، والمعروفة بالله، دون العلم والمعارف الأخرى، ويرى ابن عربي أيضاً أن اسم "عالم" الذي سمانا الله به أولى من اسم "عارف"، وأن العارف دون العالم، والله ما سمى العابد عارفاً إلا من كان حظه البكاء من الأحوال، ومن المقامات الإيمان بالسماع لا بشهود الأعيان، ومن الأعمال الرغبة إليه سبحانه والطمع في اللحوق بالصالحين قال تعالى (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) [المائدة: ٨٣]، ولم يقل علموا فوصفهم بالمعرفة، وفي آخر الآية (فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ) [المائدة: ٨٥] فسماعهم ليس من أنفسهم وأن الله سبحانه وتعالى أثابهم؛ والصديقية فوق هاتين الصفتين اللتين طلبهما العارف، فالعارف يعمل على تحصيل الأجر والثواب، والله برأ الصديقين من طلب الأعواض وطلب الثواب لأنهم يعملون أن أفعالهم ليس لهم فلا يقوم بهم خاطر لطلب العوض فلنعلم الأدب، فعلم الأسماء عظيم، وانظر بعين البصيرة أدب الرسول (صلى الله عليه وسلم) "من عرف نفسه عرف ربه" ولم يقل علم ربه.

وقد جرى د. مصطفى محمود على مجرى أهل الله، وأطلق على صاحب المقامات والعلوم اللدنية اسم عارف، وهو مصيب في ذلك، فلا يعترض أحد على كلامه؛ فقد قرأ د. مصطفى لابن عربي ويعرف كل ما قاله ولكنه لا يغوص بقارئ كتبه في هذه المحيطات العميقة المهلكة لمن لا يعرف.

ومن خلال ذلك نؤكد أن "العقل والعلم"، هما السبيل لتحقيق السعادة التي تنشدها الإنسانية عموماً ولذلك فإن كل الشؤون الروحية والأخلاقية والاجتماعية يجب أن تخضع لسلطة العقل والعلم، واعتبارها المرجعية الحاكمة لكل تصرفاتنا.

واتفق مع ذلك مصطفى محمود بأن العلم هو مطية ودابة تركبها لهدفك والخطر كل الخطر أن تركبك هي وتقودك هي وتجعل من نفسها هدفاً لك، والعلم لا يصلح هدفاً (فهو مجرد تحصيل المعلومات الجزئية عن الأشياء وروابطها وعلاقتها) وذلك هدف المحجوبين من العلماء الذين وقفت همتهم عند إدراك الأشياء وعلاقاتها، وهم الذين قال عنهم القرآن (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) [الروم: ٧].

أما أصحاب الهمم العالية فالعلم عندهم وسيلة إلى غاية أخرى هي المعرفة؛ وأيضاً المعرفة عند النفري غير العلم، فالعلم تنتهي حدوده عند إدراك الجزيئات والمقادير والعلاقات بين الأشياء والقوانين التي تربطها.

ومنتهى العلم أن نكتشف أن جميع الأشياء الحي منها والميت مخلوقة من خامة واحدة ومركبة بخلطة واحدة. ويخرج العلم بعد ذلك إلى مرحلة جديدة يسميها النفري المعرفة ويفرق بين العلم والمعرفة حيث إن العلم يبحث في الكون، والمعرفة بحث في المكون.. العلم يبحث في الأشياء المتعددة، المعرفة تبحث في الواحد... العلم يبحث في المادي، المعرفة تبحث في العيبي..

ولهذا كانت وسائل العلم (المسطرة والبرجل والمجهر والتلسكوب والحواس الخمسة والتحليل العقلي) أما وسائل المعرفة فهي (القلب والبصيرة والوجدان الصوفي).

ولذلك فإن الحقيقة المؤكدة التي يقولها العلم أن هناك وحدة في الخامة لا أكثر.. وحدة في النسيج والسنن الأولوية والقوانين.. وحدة في المادة الأولوية التي بني منها كل شيء.

ولا يمكن البدء في رحلة المعرفة إلا بالخروج من قطار العلم وقوده وضوابطه من عقل ومنطق وحواس وأدوات مادية، وهذا يستلزم التجرد من العالم المادي كله؛ ولكن العالم المادي هو معشوق النفس ومجالها.. وما العقل والمنطق والعلم إلا خدام النفس ومطاياها للتسلط على هذا العالم المادي وحيازة وامتلاكه وتكريسه لإشباع أهواء النفس وملذاتها.

ولذلك تعليقاً على ما سبق فإنه يتضح أن لا خروج من العقل والمنطق ولا خروج من أسر الحواس ولا خروج من السيطرة العالم المادي إلا بالتجرد عن النفس وهزيمتها وقمعها وإخضاعها وتكميمها وإسكات رغباتها، وهو ما يسميه النفري بالخروج من النفس أو عبور النفس وتجاوزها ويلخص هذا العبور في كلمات قليلة بليغة.

"أخرج عن نفسك عن همك أخرج عن علمك أخرج عن عملك أخرج عن اسمك أخرج عن كل ما بدا أي ظواهر الكون المادي كله".

وماذا بعد ذلك.. يكون مطلوبك هو الله.. وهمك هو الله.. وذكرك هو الله.. ونطقك هو الله.. وفكرك هو الله.

ويؤكد مصطفى محمود على أنه بدون سلوك لا توجد معرفة ولابد من العمل بما تعلم ليعطيك الله علم ما لا تعلم، وأقرب الطرق إلى معرفة الله هو معرفة النفس والإنسانية.

ويشترك توفيق الحكم مع رأي مصطفى محمود في أن حياة البشر تقوم على ماديات ومعنويات والمعرفة يجب أن تشمل الجزأين معاً المادة والروح، فالمعرفة وسيلة البشرية التي لا تملك غيرها فأنني أحب طرائق العلم، لكنني أخشى نتائج العلم ولعل عقل العلم لا يكفي ولا بد من إدراك الجمال والروح ويتم ذلك بالعودة إلى القلب.

كما أشار بأنه على الرغم من تعدد الوسائل التي يتم من خلالها التعليم إلا أن هناك وسيلة هي أساس العلم وهي أن الله فقد علمنا بعض وسائل العلم الذي أراد لنا أن نتقدم فيه ومن هذه الوسائل قائمة على مبدأ السببية فهو تعالى وإن كانت إرادته هي العليا ويكفي أن يقول للشيء كن فيكون كما جاء في قوله تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [الإسراء: ١٦].

كما يظهر ذلك جلياً من خلال تجربة الغزالي الروحية وأن كل من أتى بعده أكد تلك الأفكار.. ولذلك فإن تجربة الإمام الغزالي المعرفية هي من أهم التجارب الموثقة التي يمكن أن تكون نموذجاً لكل باحث عن الحقيقة الإنسانية بكل أبعادها الوجودية. فالغزالي يضعنا أمام المشكلة الإنسانية فالمعرفة معاناة وتجربة ونتائج علينا أن نعيشها لكي نعرف. إذا كنا لا نصدق الآخر، أو إذا كنا نريد أن نعرف ما عرفه الآخر فعلينا أن نقبل التجربة.

ومن نفس المنطلق أيضاً أكد مصطفى محمود على أن الإنسان يعيش مضطرباً بين عالمين: عالم إراداته الحرة بداخله، وعالم المادة حوله الراسف المغلول في القوانين، وسبيله الوحيد إلى فعل حر هو معرفة هذه القوانين والفطنة إلى استغلالها بالوفاق معها، وهو دائماً أمر ممكن.

ولهذا فالحرية حقيقة لا تنفيها المقاومات والظروف الخارجية، بل إن هذه المقاومات تؤكد الحرية فلا يمكن أن تكشف حريتنا عن مدلولها في الخارج إلا بوجود عقبات تزحزحها وتتغلب عليها، إنها تكشف عن مدلولها من خلال صراع وبدون هذا الصراع لا يقوم لها معنى.

ويؤكد أيضاً بأن البداهات أصل من أصول المعرفة ومرجع لا يجوز الشك فيه (لأن هذا المرجع شأنه شأن الحياة ذاتها) ويقول نحن أمام متن هو لحم المعرفة ودمها، وكما نأتي إلى الحياة مزودين بعضلات لنتحرك بها وندافع عن أنفسنا كذلك نولد مزودين بالبداهات الأولى لنحتكم إليها في إدراك الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

وأعلى درجات المعرفة هي ما يأتيك من داخلك، فأنت تستطيع أن تدرك وضعك (هل أنت واقف أو جالس أو راقد) دون أن تنظر إلى نفسك، يأتيك هذا الإدراك وأنت مغمض العينين، يأتيك من داخلك، وتقوم هذه المعرفة حجة على أية مشاهدة.

وحينما تقول.. أنا سعيد.. أنا شفي.. أنا أتألم.. فكلامك يقوم حجة بالغة ولا يجوز تكذيبه بحجة منطقية.. بل أن تنال هذا الأمر بالمنطق هو تنطع ولجاجه لا معنى لها.. فلا أحد أعرف بحال نفسك من نفسك ذاتها.

وبالمثل شهادة الفطرة وحكم البداهة هي حجة على أعلى مستوى، وحينما تقول الفطرة والبداهة مؤيدة بالعلم والفكر والتأمل، حينما تقول بوجود الروح والنفس وبالحرية وبالمسئولية، والمحاسبة، حينما توحي بالتصرف على أساس أن في الكون نظاماً، فنحن هنا أمام حجة على أعلى مستوى من اليقين.

وهو يقين مثل يقين العيان أو أكثر، فالفطرة عضو مثل العين نولد به. وهو يقين أعلى من يقين العلم؛ لأن الصدق العلمي هو صدق إحصائي والنظريات العلمية تستنتج من متوسطات الأرقام. أما حكم البداهة فله صفة القطع والإطلاق ٢× ٢ = ٤ هي حقيقة مطلقة صادقة مطلقاً، لا يجوز عليها ما يجوز من نسخ وتطور وتغير في نظريات العلم لأنها مقبولة بديهية.

١ + ١ = ٢ مسألة لا تقبل الشك لأنها حقيقة ألقتها إلينا الفطرة من داخلنا وأوحت بها البداهة، وهي معرفة أولى جاءت إلينا مع شهادة الميلاد، ولو أدرك الإنسان هذا لأراح واستراح ولوفر على نفسه كثيراً الجدل والشقشقة والسفسطة والمكابرة في مسألة الروح والجسد والعقل والمخ والحرية والجبر والمسئولية والحساب ولأكتفي بالإصغاء إلى تهمس به فطرته وما يفتي به قلبه وما تشير به بصيرته.

القيم

إن القيم التربوية من أهم المسائل التربوية الأساسية في أي مجتمع من المجتمعات على الإطلاق، فهي التي تقف وراء كل ما يتخذ في التربية من أعمال – سواء كانت هذه الأعمال تتصل بفلسفة التربية أو بالإجراءات التي تتخذ لتحقيق أهداف التربية أو بألوان النشاط المختلفة التي تمارس، أو بطريقة التدريس المتبعة، أو بغيرها – فكل ما تتخذه في إطاره عملية التربية هي في الوقع ترجمة حية لهذه القيم التربوية التي ليست وليدة فراغ، وإنما هي وليدة القيم العامة السائدة في المجتمع سواء ما اتفق عليه منها أو مما كان أبناؤه يطمعون في تحقيقه.

وتختلف الاتجاهات حول موضوع القيم ففي حين نجد إحداها يتجه لاعتبار القيم مطلقة نجد الأخرى تراها نسبية، أما الثالثة فتراها مطلقة ونسبية في آن واحد، كما نجد أن بعضها يرى أن مصدر القيم هو السماء، في حين يراها البعض الأخر في العقل والخبرات الإنسانية، وفي حين تؤمن بعض الفلسفات باستحالة تغير القيم وصراعها. على أن هذه الفلسفات تقريباً تتفق في كون القيم معايير توجه سلوك الفرد والمجتمع، أما في القرآن فالقيم ثابتة ثبوتاً مطلقاً لأنها منهج الحق الذي أنزله في القرآن الكريم، ولأنها شاملة الكون كله وكذلك الزمان، وأنها مشتقة من الإسلام ذاته، فالإسلام منهج كامل للعقيدة والقيم الأخلاقية أيديولوجية تامة تعتبر كل مظاهر الحياة – الأدبية والمادية والروحية والعقلية الفردية والاجتماعية – كلاً لا يتجزأ.

وعليه فإن الإسلام جاء ليربي الإنسان قلباً وروحا، ويربيه جسداً، وعقلاً ويربيه أخلاقياً وسلوكياً، ويرتفع به إلى الأفق الأعلى، أفق الإنسانية آخذاً بيده؛ حتى يجعله في النهاية صورة حية من تصورات الإسلام للإنسان الكامل، ويصنع منه طاقة كونية فعالة تهيمن على الكون وتسخره لتحقيق الخلافة في الأرض.

ولذلك فإن أساليب التربية تحتل مكانة مهمة، إذ أنها تعتبر أدوات لتحقيق المبادئ والأهداف التربوية؛ لأن العملية التربوية لا يمكن أن تؤتي ثمارها المنشودة إلا إذا وجدت الأساليب الصحيحة والمناسبة لها.

ومن ثم تعددت أساليب التربية وتنوعت حسب مواقف الحياة، بل حسب متطلبات كل موقف، فليس هناك أسلوب واحد يصلح لتحقيق جميع أهداف التربية، ويناسب جميع المتعلمين على اختلاف قدراتهم واستعداداتهم وتنوع مراحلهم العمرية، ولكن أساليب التربية متكاملة يكمل بعضها بعضاً من أجل تحقيق الأهداف المنشودة وفيما يلي بعض تلك الأساليب:

أ- التربية بالعبادات:

يقول مصطفى محمود إن الله ليس بحاجة إلى صلاتنا ولا إلى صيامنا ولكن نحن المحتاجون.. لعلنا في صلاتنا العميقة نتذكر ولعلنا بالعبادة والتوجه نتصل بنبع وجودنا.. ونستمد منه حياتنا.

ولذلك فالصلاة والعبادة استمداد. نحن الذين نحتاج إليها لتكون لنا حياة. وليس الله.. لأن الله هو الحي بذاته المستغني بوجوده عن كل شيء، أما نحن فلا يمكن أن تكون لنا حياة إلا بمدد منه.. من الله.. الحي الذي به الحياة، ونفهم من هذا أن الله فرض الفروض ووضع شرائع العبادات من أجلنا وليس من أجل أن يشعر بألوهيته. فهو في غنى عنا.. وفي غنى عن أن يعذبنا.. وفي غنى عن أن يطلب منا طلبا أو يفرض علينا فرضا، قال تعالى (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) [النساء :١٤٧] فلا مصلحة لله في تعذيب خلقه ولا حاجة له في ذلك، وهو بالفعل لا يفرض علينا فرضا ولا يطالبنا بطلب ولا يقيم علينا عذابا، كل هذا يبدو من ظاهر العبادات فقط.

أما باطن القرآن الذي يكشف نفسه لكل من جاهد في الفهم، إن الله هو الرحيم مطلق الرحمة، العادل مطلق العدل الذي يعطي مطلق العطاء ولا يأخذ شيئا ولا يحتاج لشيء، وإذا كان في الدنيا ألوان من العذاب فهي من عيون رحمته. وقال تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[السجدة : ٢١].

كل ذلك ما هو إلا محاولات لإيقاظ العقل الغافل لعله يتذكر ويرجع وينجو بنفسه من عذاب أكبر في الطريق. عذاب لن يكون منه مخرج ولا مهرب. حينما تحق على كل واحد رتبته ودرجته.

ومما سبق يتضح أن العبادات تؤدي ودورها في الإصلاح والتزكية حينما تكون شعائر وليس طقوس آلية، وإن لم تؤد العبادة دورها وغاياتها في إصلاح الفرد والجماعة بتقوى وخشوع وتوافق وتراحم وتكامل، فإنها تؤول إلى طقوس شكلية وحركات آلية تفقد معناها ومغزاها وحكمتها.

ب- التربية بالتحلي والتخلي:

التربية بالتحلي من الوسائل التربوية الإسلامية الفريدة في نوعها ويقصد بها أن تتحلى النفس البشرية بالأوصاف المحمودة كبديل للأوصاف المذمومة التي اعتادت عليها وهو نوع من العلاج بالاجتهاد ولا بد فيه من التدرج.

ومن خلال ذلك يؤكد علماء التربية على أهمية "قاعدة التحلي والتخلي" التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل، وقد ذكرت الآيات في مضامنها خمس صفات للتحلي وثلاث صفات في التخلي.

١- القاعدة الأولى في قول الله تعالى(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً).

٢- ثم القاعدة الثانية وهي في قوله ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) [الفرقان: ٦٣].

٣- ثم الثالثة الصلاة والمناجاة في قوله تعالى(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً) [الفرقان: ٦٤].

٤- ثم التحلي أيضا في الرابعة وهي قضية الاستعاذة منهج الاستعاذة من النار في قوله ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) [الفرقان:٦٥].

٥- ثم الاعتدال والتوازن في قوله (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [الفرقان:٦٧] كميزان هذه في القاعدة التحلي.

وفي قاعدة التخلي ذكرت ثلاث صفات – وسبحان الله لا تستقيم الأفراد أو المجتمعات إلا بهذه الصفات الثلاثية، ولذلك جاء التأكيد فيها بالنسبة للمؤمنين كيف عليهم أن يتخلوا عن هذه الصفات الثلاثية لأنها من أشد وأرذل الصفات التي نهى الله عنها في هذه السورة ولذلك:

١- الأولى وهي الشرك في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ).

٢- الثانية وهي قتل النفس في قوله تعالى (وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ).

٣- والثالثة وهي في قوله تعالى (وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) [الفرقان : ٦٨].

إذن هذه ثماني صفات ذكرها الله سبحانه وتعالى تحت قاعدة التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

ولذلك فإن خطوات الطريق الصوفي تبدأ بالصحوة الإنسانية واليقظة والقضاء على الميول الأنانية وهو ما يسمى (التخلية) أي إخلاء القلب من كل الأدناس والسلوك والمخازي ثم (التحلية) ويقصد بها التحلي بمكارم الأخلاق فهما مرحلتان تربويتان تبدأ الأولي بطرح الأخلاق المذمومة والعادات السيئة وكافة أنواع الانحراف التي تحجب النفس عن فطرتها وصفائها، ثم تأتي المرحلة التالية وهي مرحلة البناء والتشييد.

وأوضح مصطفى محمود على أن الصوفية تؤكد على ذلك في لغتهم بقولهم: إن هذا السلوك ضروري لإعداد المحل "محل القلب" وذلك (بالتخلية والتحلية) – أي تخلية القلب من الأخلاق الذميمة وتحليته بذكر الله . وبذلك يصبح المحل صالحاً لتلقي الإشراقات والمعارف الإلهية.

ويقول الغزالي قائلاً عن تجربته الصوفية أنها تتطلب نقاء القلب وطهارته أولا قبل التلقي، التخلي قبل التحلي فيقول لما فرغت من العلوم أقبلت على طريق الصوفية وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل

عملهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله وتحليتها بذكر الله.

ويؤكد الغزالي على معنى التربية بأنها تشبه الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه.

كما يشير أيضا عبد القادر الجيلاني إلى هذا النوع من الأساليب التربوية فيقول "يا قوم ما نكلفكم بشيء إلا ونعطيكم خيراً منه".

وإذا تبت فليتب معك سمعك وبصرك ولسانك وقلبك وجميع جوارحك، وتزيل العادة وتترك مكانها العبادة، وتزيل المعصية وتترك مكانها الطاعة، إذا تحقق لك هذا جاء بالفناء عن الأخلاق المذمومة.

ثم يشير الشيخ عبد القادر– ويعلم المعلم كيف يستخدم هذه الوسطية فينصحه فيها بالرفق عند عجزه عن احتمال الرياضة فيأخذه بالأسهل ولا يحمله ما طاقة له به ،ثم بالأشد فيأمره أولا بترك متابعة الطبع في جميع أموره، واتباع الرافض للشرع حتى يخرج بذلك عن قيد الطبع وحكمه ثم ينقله من الرخص إلى العزيمة شيئاً بعد شيء، فيمحو خصله من الرخص ويثبت مكانها خصلة من العزيمة.

وتأسيساً على ما سبق فإنه وجب علينا أن نتحلى ببعض الصفات ونتخلى عن غيرها ومن تلك الصفات:

- تخل عن الشرك بجميع أنواعه ومظاهره واتجه لله تعالى فلا تعبد غيره ولا تقصد سواه في كل أمورك.
- تخل عن الربا في المعاملات والغش في الكيل والميزان وتحل بالحلال والرضا به، ولو كان قليلا فإن فيه البركة.
- تخل عن إضاعة الأوقات فيما لا يفيد كاللهو ولعب القمار والميسر، وتحل بالحفاظ على الوقت وحسن اغتنام الزمن، فالوقت هو الحياة.
- تخل عن أصدقاء السوء، وتحل بحسن اختيار الصديق فالمرء على دين خليله.
- تخل عن السلبية والانعزالية عن المجتمع، وتحل بالإيجابية والاختلاط الذي لا يضر بالدين.
- تخل عن عدم النظام وعدم الترتيب، وتحل بالترتيب والنظام والنظافة في كل الأمور.
- تخل عن الصلاة في البيت، وتحل بالصلاة في جماعة بالمسجد.
- تخل عن القسوة والشدة التي تستخدم في أذى الجيران، وقطع صلة الرحم، والأخذ بالثأر، وتحل بالعفو والدين والتسامح والتعاون.

ولذلك فإن الزرع لا يمكن تنشئته قبل تهيئة الأرض وإصلاحها وتطهيرها من الأمراض النباتية، وكذلك الأطفال ننشئهم ونربيهم تربية صحية واجتماعية وأخلاقية، ولا يمكن أن يتم ذلك في بيئة فاسدة، فكما أن الأمراض تنتقل

بالعدوى، كذلك الأمراض الخلقية والاجتماعية تنتقل بالتقليد والمحاكاة والعادات الاجتماعية وصدق الله تعالى (وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) [الأعراف : ٥٨].

ج–التربية بالقصة:

يعد أسلوب القصة أحد الأساليب الفعالة في التربية، بل يمكن القول: "إن أحداث القصة وخيالاتها وتصوراتها كانت أقوى قوة دفعت الإنسان إلى تحريك لسانه وإلى إيقاظ ملكاته وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه.

وللقصة تأثير قوي لأنها تتغلغل في خطوط دفاع الإنسان، كل إنسان يوجد عنده قناعات، وعنده أفكار، وعنده تصورات، وهذه الأفكار والقناعات والتصورات عبارة عن سدود لا يسمح لإنسان أن يخترقها، إلا أن القصة تستطيع أن تخترق هذه السدود وهذه الحدود اختراق تسلل، لذلك كما أنها أفعل أسلوب في التأثير فهي أيضاً أفعل أسلوب في الإفساد، ولذلك فإننا ممكن أن نوصل إلى إنسان معين فكرة لا يمكن أن يقبلها مباشرةً أبداً، مستحيل أن يقبلها، أما من خلال قصة يقبلها الإنسان إذا قرأ القصة وتأثر بها، وتسلسلت وراء خطوط دفاعه، لذلك يمكن أن تصلح إنساناً بقصة ويمكن أن تفسده بقصة، وقال الله عز وجل خالق الأكوان المربي الحكيم (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) [يوسف : ٣] وقال أيضا: (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا) [الأعراف : ١٠١].

ولعل تأثير القصة القوي الذي يلمس الوجدان ويحرك المشاعر ويفيض الدموع جعل مصطفى محمود يأخذ أسلوب القصة لشد جذب القراء نحو هدف ما ولإيضاح فكرة ما ولإعلاء قيمه ما بطريقة شيقة مبسطة ودون اللجوء إليها مباشرة وذلك من خلال مجموعة قصص (أكل عيش – عنبر٧ – نقطة الغليان – شله الانس –رائحة الدم– الذين ضحكوا حتى البكاء).

ولقد امتاز بالأصالة والواقعية والتدخل في حارات الحياة وأزقتها المفروشة بأشواك الفقر والجوع والمرض والحرمان، تلك الأشواك التي تقود صاحبها إلى كل موبقة، وتؤدي به إلى تهتك القيم الأخلاقية، وقد نشأ مصطفى محمود واقعياً كغيره من الكتُّاب، لكن الاتجاهات المختلفة وأوضاع الحياة في المجتمع أوقعت به إلى جهة من الشك، فرأى أن كل الحلول المعروضة في بيئته قد فشلت، ووجد في الإسلام حلاً لهذه المشكلات، بالإضافة إلى عملية الإقناع الفكري بخروجه من الشك إلى اليقين، فتحول إلى كاتب إسلامي، فهو بذلك يحتل مكانه مميزة عن غيره من الكتاب فهو يتميز عن يوسف إدريس مثلا الذي رأى في الاشتراكية حلاً لمشكلات الإنسان، وعن يوسف الشاروني الذي أخذ يندب حظ الإنسان المسيحي في مصر ولا يرى أي حل لأزماته.

أما مصطفى محمود فيرى حل المشاكل في الإسلام، ويظهر تأثير شخصيته الهادئة في كونه مثلا يتعاطف مع بعض شخصياته، فهو لا يهجم هجوماً حاداً على الأشرار منهم، بل يكشف عن الظروف والعوامل التي دفعت بهم إلى الشر.

د- التربية بالقدوة الحسنة:

لقد أمر الله – عز وجل – بدعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة فقال سبحانه: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) [النحل : ١٢٥].

ومن القول الحسن أيضاً: حسن المناداة للطرف الآخر، واختيار أحب الأسماء إليه، وقد تأدب الأنبياء بهذا الأدب في خطابهم لأقوامهم، فقد كان يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) لخصومه المعاندين: (يا قوم) في ودد وسماحة وتذكير بالروابط التي تجمعهم، ليستثير مشاعرهم، ويطمئنهم فيما يدعو إليه.

ولعل من أعظم ما يؤثر في توجيه الأبناء وتعديل سلوكهم أن يروا الأفعال وهي تترجم الأقوال، والتطبيقات تبرهن النظريات التي كثيراً ما سمعوها من والديهم ومعلميهم، فتتحول الكلمات الباردة إلى سلوك حي، والمثاليات إلى حقائق تتحرك، والخيال إلى واقع محسوس يراه الابن رأي العين، وهذا ما يعرف بأسلوب القدوة الذي يجمع عليه علماء التربية بأنه أرقى أساليب التربية وأفضلها، ومتى فقده المربي فقد الورقة الرابحة في منهج تربيته لأولاده.

وتعد التربية بالقدوة الحسنة من الأساليب الفعالة غير المباشرة في التربية، والذي يريد أن يربي غيره بمجرد الوعظ والكلام لا ينجح ولا يكون له نفس الأثر الناجم عن الذي يربي بالكلام والعمل بما يتكلم به، ذلك هو المقصود بالقدوة الحسنة.

ومن ثم فإن التربية بالقدوة الحسنة وأُكِد القرآن الكريم أهمية القدوة الحسنة في حياة الإنسان، حيث إنه رسم الصورة الأخلاقية الكاملة نظرياً فيه، وطبقها الرسول (صلى الله عليه وسلم) عملياً في سلوكه، وفي كل حياته، ومن ثم تظهر ضرورة التأسي والاقتداء به في حياة كل مسلم، ولقد كان بذلك الإنسان الكامل والمثل الأعلى في الرحمة والكفاح والصبر، والمجاهد المتفائل، والمثل الأعلى في الصدق والإخلاص والوفاء والبر والكرم، ولا ريب في أن الأمة حين تقتدي بأعظم البشر رجولة وإنسانية ونقتدي بمن أحب الله – سبحانه وتعالى – أن نقتدي به قال تعالى :(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [الأحزاب : ٢١].

هـ- التربية بالموعظة والنصح:

ويعد أسلوب الموعظة من أساليب التربية المعروفة منذ القدم، فالإنسان دائما في حاجة إلى من يعظه وينصحه ويذكره، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لكثرة نسيانه، ومن ثم يتضح أهمية أسلوب الموعظة والنصح في التربية.

ولعل كلمه الوعظ لا تبدو محببة إلى الناس أحياناً مع أنها جاءت في القرآن الكريم قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا) [النساء : ٦٣] وقال أيضا: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان : ١٣] وفي المقابل يقول(صلى الله عليه وسلم) (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم) [البخاري عن أبي هريرة].

ولذلك فإن أسلوب الموعظة يبدأ بالنداء إما تحذيراً أو إقناعاً، مثل:(يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ) إقناع: (قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ) [يوسف: ٥]، (يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا) [هود: ٤٢]، (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ) [لقمان : ١٣]، وذلك الواعظ هو، الأب، المعلم، الموجه، ولعل استخدام كلمات النداء المحببة يدخل إلى قلوب المستمعين، كما يسهل دخول الموعظة إلى النفس، ونطلق عليه النداء الإقناعي أو التحذيري الذي يجعل مودة بين المتكلم والمستمع.

وعليه فإنه ينبغي على الأب أن يكثر من النداء الأبوي يا بني، يا ابنتي، ويخاطب أيضاً زوجته وأهله ليجعل بينهم مودة ورحمه بتلك النداء.

وتأسيساً على ما سبق فإنه يجب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبكل ما هو حسن وأحسن، والصبر على ذلك، وهذا يعني البحث عن أنجح الوسائل وأجمل الطرق وأجدى الأساليب وأقوم الخطاب الذي يقدم من خلال القدوة الحسنة والأسوة الخيرة تبشيرا بالخير وترغيبا فيه، وهو أي الخير:" ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلا والعدل والفضل والشيء النافع، وهو خير مطلق مرغوب فيه من كل أحد وعند كل أحد".

و– التربية بالترغيب والترهيب:

يطلق مصطلح الترغيب والترهيب عند المسلمين على الوسائل الدافعة لفعل شيء، أو المانعة من فعله، فالترغيب وعد وإغراء بمصلحة أو متعة آجلة مؤكدة، والترهيب وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف ذنوب أو التقصير في طاعات، فالتربية بالترهيب والترغيب لها ضوابط وتعد من العوامل الأساسية لتنمية السلوك وتهذيب الأخلاق وتعزيز القيم الاجتماعية.

ويمثل الترغيب دوراً مهماً وضرورياً في المرحلة الأولى من حياة الطفل؛ لأن الأعمال التي يقوم بها لأول مرة شاقة تحتاج إلى حافز يدفعه إلى القيام بها حتى تصبح سهلة، كما أن الترغيب يعلمه عادات وسلوكيات تستمر معه ويصعب عليه تركها.

ويمكن القول بأن للترغيب نوعان: معنوي ومادي، ويرى بعض التربويين أن تقديم الإثابة المعنوية على المادية أولى؛ حتى نرتقي عن حب المادة، وبعضهم يرى أن تكون الإثابة من جنس العمل.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة حاجة المربي إلى الترهيب، فالعقاب يصحح السلوك والأخلاق، وللترهيب درجات، لذا يجدر بالمربي أن يتجنب الضرب قدر الإمكان، وإن كان لابد منه ففي السن التي يميز فيها ويعرف مغزى العقاب وسببه.

ز- التربية بالتعليم والتعلم مع مراعاة الفروق الفردية:

إن وجود الفروق والاختلافات بين الناس أمر فطري، وفيه تأكيد لقدرة الخالق عز وجل، وبديع صنعه، ودقيق علمه، فهي إثبات بديهي لحاجة بعض الناس إلى بعض، وعدم إمكان العزلة والاستغناء عن الآخرين ، ثم هي بعد ذلك مؤشر على قدرات البشر المتفاوتة على العمل والإنتاج.

ولهذا كله فقد اهتم التربويون بدراستها وبيان أثرها في التعليم والتعلم، غير أنهم لم يَتَّفقوا على تعريف واحد لها، وإن كانت كل تعريفاتهم متقاربة، فقد عرَّفها التربويون على أنها الاختلافات التي يختلف بها كل فرد عن غيره من الأفراد، جسدياً أو عقلياً أو نفسياً أو سلوكياً.

كما يوجد عاملان يسهمان في نشوء الفروق الفردية هما: البيئة والوراثة، ويقول الإمام الغزالي مبيناً أهمية هذين العاملين: إن النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلا أنها خلقت خِلْقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضافت التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية فقوله: "إذا انضافت التربية ..." إشارة إلى البيئة ، وجملته الأخيرة إشارة إلى أثر الوراثة.

ومن هذا المنطلق فإن أساس الإسلام أن العقل هو مناط التكليف، ولذا - كان العقاب والحساب على من له عقل، ولا حساب على من لا عقل له، عن عائشة، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (رفع القلم عن ثلاث، عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يقل).

وقد حث الإسلام على مخاطبة الناس حسب مستوياتهم العقلية والفكرية، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: حَدِّثُوا الناسَ بما يَعرِفونَ، أَتُحِبُّونَ أنْ يُكَذَّبَ اللّهُ ورسولُه؟

ومن الدلالات التربوية التي نستطيع أن نستنبطها: أن على المعلم أن يخاطب طلابه حسب مستوياتهم العقلية، ومستوياتهم العلمية، ضماناً لحسن فهمهم ، وتحقيقاً للعدل، فلا يهتم بطائفة منهم ويهمل طائفة.

ولعلنا نجد في واقعنا بعض المعلمين يُثنون حسن الثناء على الفائقين من طلابهم، ويُوسِعُونَ ضِعافَ التحصيل لوماً وتوبيخاً ,حتى إن بعضهم ليتسربوا من التعليم لهذه المعاملة غير العادلة، وغير التربوية، كما حدث مع مصطفى محمود حين رسب ثلاث سنوات في السنة الأولى الابتدائية وذلك بسبب معلمة الفصل، هذا كان حال المعلمة تعنيف ولوم، أما حال الأهل فقد تركوه على حاله دون تغليظ أو تعنيف، فالبيئتان تعنى بالتربية، ولكن أيهما له عظيم الأثر في النفس، وأيهما يجذب الفرد إليه بغض النظر عن اسمهما ، للشدة والقسوة أم للحلم والحنان.

ولذلك فالتدرج أمر ضروري سواء في محو تخلف في الماضي الموروث أو في بناء جيل جديد، إذ لابد من التدرج لأنه سنة كونية ، وهو ما نراه من خلق الله للكون، وهو ما نراه من خلق الله للإنسان والحيوان والنبات، كلها تدرج في مراحل حتى يبلغ نماؤها وكمالها، حيث بدأ الإسلام بالدعوة إلى التوحيد وتثبيت العقيدة الإسلامية السلمية، ثم كان التشريع شيئاً فشيئاً، فقد فرض الفرائض وحرمت المحرمات بالتدرج، كما هو ثابت في فرض الصلاة والصيام وتحريم الخمر... وغيرها.

وفي النهاية آن لنا أن نؤكد ما يقوله مصطفى محمود بأن الله أراد بالإسلام أن تكون له راية في الأرض، وليس فقط أن يكون هداية للأفراد في ذواتهم وهو القائل:(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) [الصف: ٩]، [الفتح: ٢٨]، [التوبة:٣٣])، إن هذا الإظهار على الدين كله هدف مقصود ومراد من مرادات الله في الدنيا، ومن ثم يكون على كل مسلم واجبان يؤديهما: أولهما أن يصلح نفسه، وثانيهما أن يصلح المناخ الاجتماعي حوله ليهتدي غيره.

وإنما يكتفي المسلم بالواجب الأول فيغلق عليه بابه، ويلزم خاصة نفسة في آخر الزمان حينما ينهار كل شيء ويسود الكفر ويتفشى الظلم، ويعم الفساد، ولا يعود أي عمل ممكنا.

ثالثاً : التطبيقات التربوية للتجربة الصوفية عند مصطفى محمود:

تنحصر التطبيقات التربوية في الأهداف والوسائل وآليات التحقيق وعليه فقد تم تركيزها في النقاط التالية:

١- الإنسان هي دعوة إلى أدب النفس وتهذيبها روحياً، ويقوم على أساس الإيمان بالله واليوم الآخر وقوة العقل وتزكيته، والعلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ويدعو إلى كمال الإيمان، والحصول على درجة الإحسان هو العلم الذي اهتم به الصوفية، فقدروا أنه لا صلاح للحياة الاجتماعية إلا بتحقيق هذا العلم، وسموا هذا النوع من التربية الروحية – بالتربية الصوفية. إن طريق الوصول إلى العلم الذى هو صدق العبودية لله تعالى والقرب منه ويتحقق بالالتزام بمنهج الله واتباع صراطه المستقيم ، وقد ثبت أن سيدنا الخضر أول ما وصِفَ به هو صدق العبودية – يقول سبحانه وتعالى: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) [الكهف:٦٥].

٢- مهما بلغ علم الإنسان فإن علمه قاصر ، وعليه ألا يظن أنه لا يوجد من هو أعلم منه مهما بلغت درجة علمه . وكما يقال " المزية لا تعطى الأفضلية.

فمن العلم ما هو علم بظواهر الأشياء يمكن تحصيله بناء على معرفة الشرائع الظاهرة، وعلم ببواطن الأشياء يمكن تحصيله بناء على تصفيته الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب من العلائق الجسمانية ولهذا قال الله تعالى في صفة ذلك العلم وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

٣- لا توجد مخالفة بين الشريعة والحقيقة ولا بين الظاهر والباطن . فحقيقة العلاقة بين الشريعة والحقيقة إنما هي التلازم أو الاتحاد، فالشريعة أمر بالتزام العبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى، والحقيقة مشاهدة آثار الربوبية في تمام العبودية.

- فالشريعة جاءت بتكليف الخلق بالعبودية التامة والحقيقة إنباء عن تصريف الحق في الخلق.
- فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده في كمال العبودية.
- فالشريعة القيام بما أمر الله لتحقيق العبودية والحقيقة شهود ما قضى وقدر وأخفى وأظهر.
- أي أن الشريعة معرفة السلوك إلى الله تعالى والحقيقة مداومة النظر إليه، فالشريعة ظاهر الحقيقة، والحقيقة باطن الشريعة.
- فالشريعة والحقيقة متلازمتان لا يتم أحدهما إلا بالآخر .. وهذا هو منطلق الصوفية العارفين بالله تعالى أهل التشرع والتحقيق .

٤- لتكن غايتنا العظمى هي الوصول إلى الله تعالى، (اعرف الله تعرف من تعبد)، والرضا عن الله وبالله ولله هو المقام المنشود الذى لا يتحقق إلا بتمام العبودية وكمال العبودية لله.

حيث يجمع العبد بين علم اليقين وعين التعبد ليصل إلى حق اليقين، فيعرف الأشياء كما هي لا يصورها ولا يعللها بل يتركها على علتها التي خلقها الله عليها، ويعرف أن القدرة مستورة خلف الحكمة وأن الحكمة مستورة في الأسباب ، وأن رفع الأسباب لا يكون إلا بالله تعالى مسبب الأسباب.

٥- التربية الصوفية تربية إيمانية تهتم بتقوية الوازع الإيماني عند الأفراد ليصلوا إلى الكمال والرضا النفسي.

ولذلك لأن الإيمان قول وعمل، ولا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص، والإيمان لا يقبل إلا بالصلاة والصيام والصدقة وأفعال الخير.

٦- تهدف التربية الإيمانية إلى صياغة الإنسان وفق مفاهيم الدين وتعاليمه، فالدين هو الأساس لكل تدين، وهو الموجه لكل نشاط إنساني، وكل عمل المربي يدور في إطار الدين والشرع من أجل معتقداته وقيمه في نفس الناشئ وسلوكه وفكره ليكون هو الدافع والمحرك في آن واحد.

٧- إن الإسلام وحده هو الذي يصل الإنسان بالله ليسير بجسمه على الأرض بينما يتجه بروحه إلى السماء، فإن التربية الصوفية حاولت تطبيق هذا المبدأ ، وحاولت أن تصل الإنسان بالله ليصلح حاله على الأرض وينظم حياته، ويرقيها عن الكد والكدح، واستغلال كل الطاقات التي منحه الله إياها.

٨- إن النظام الإسلامي يتناول الحقائق الكلية كلها، حقيقة الألوهية، وحقيقة الكون، وحقيقة الحياة وحقيقة العبودية، وحقيقة الإنسان ويربط بين مجموع تلك الحقائق من جميع جوانبها في تصور واحد منطقي فطري ، يتعامل مع فكر الإنسان ووجدانه ، ومع مجموع الكينونة البشرية في كّل متكامل.

ولذلك فإن ما يقال في الإيمان بالله والإقرار بوجوده، والاعتراف باطلاعه على أعمال العباد، وخشية المؤمن جزاء الله العادل على ما يرتكب من خير أو شر، هو حجر الزاوية في التربية الإسلامية، ولذلك قيل: رأس الحكمة مخافة الله، ولا يلبث الصبي المسلم بعد " رسوخ " العقيدة في نفسه، أن يسلك بوحي من ضميره فيميز بين الحلال والحرام، وأن يقبل على الخير ويبعد عن الشر، وأن يعمل على البر بأهله ومساعدة الضعيف ، وإطعام اليتيم والمسكين، ثم هو لا يقف في دائرة العمل عند حد نفسه، بل يتجاوز ذلك إلى المجتمع بأسره حسب القاعدة الإسلامية " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" فما يميز التربية الإسلامية في جوهرها هو هذا الضمير المستمد من مخافة الله بعد معرفته حق المعرفة، حتى يصبح سلوك المسلم صادراً عن وحي الضمير في السر والعلانية.

كيفية الاستفادة والنهوض بالمجتمع:

إن رفض التراث الصوفي يستبعد أجمل وأروع ما كتب في رياضة النفس وفي تزكية الأخلاق ومجاهدة الشهوات . كما يحرم الفكر الإسلامي من أعمق ما قيل في التوحيد وفي المعارف الإلهية .

وما أجمل ما يقوله الصوفي الموحد لربه في خشوع وحب :

هذا الوجود وإن تعدد ظاهراً وحياتكم ما فيه إلا أنتم

ويقصد ذلك الصوفي في قوله بأن كل ما يراه في الدنيا هو تجليات الحضرة الأسمائية والحضرة الصفائية لمولاه ، كما يقصد الإسلام بأن العالم هو صنعة الله وتجليات لقدرته، ونحن نقرأ صفاته في صنعته وتتجلى أسماؤه في كمال صنعته، أما ذاته سبحانه فهي في غيب الغيب لا يجوز عليها الحلول أو التجسد أو الاتحاد أو الاتصال أو الانفصال وإنما هي في العلو المطلق، وإنما كل ما نرى حولنا من مظاهر فهي تنازلات أسمائية وكلمات وأفعال إلهية، ألم يقل سبحانه وتعالى لمريم عن المسيح :

(إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) [آل عمران : ٤٥].

وعن يحيى : (أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ) [آل عمران : ٣٩].

وكلماته سبحانه لا نهاية لها ولا تعد ولا تحصى وكل المخلوقات كلماته.

(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً) [الكهف : ١٠٩].

وبدون التراث الصوفي يفقد الدين بعداً وجدانِّياً عرفانيًا لا غنى عنه ولكن أيضاً وبنفس القدر من الأهمية لا يصح أخذ التراث الصوفي على أنه قرآن منزل، ولا يصح التسليم بكل ما فيه على علاقة ولا يصح النظر إلى الصوفيين

على أنهم معصومون لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، بل هم قوم ممن خلق الله يجوز عليهم الخطأ والصواب.

والقراءة السليمة للتراث الصوفي هي القراءة الانتقائية الناقدة التي تزن كل حرف بميزان الشريعة، وتعرضه على ضوء السنة والكتاب والعقيدة السليمة التي علمها لنا كتابنا ونبينا (صلى الله عليه وسلم) لا نجاوزها قيد شعرة ولو دعانا هذا التجاوز إمام الصوفية في زماننا .

ولهذه المحاذير سوف تظل المعارف الصوفية زاداً للقلة والخاصة من القراء وعلماً مضنوناً به على غير أهله ، وليس علماً مشاعاً للعوام والكثرة، لأنه علم يحتاج إلى بصيرة لفهمه واستشفافه، ولأنه معرفة تحتاج إلى ذوق ومعاناة لإدراكها .ولمن يقول إنه لا يفهم شيئاً نقول: (لو أحببت كما أحببنا لفهمت كما فهمنا).

وأخيراً فإن العطاء والمدد من الله تعالى، لكن لابد من الأسباب الموصلة إلى هذا العطاء والله تعالى يكرم البعض بالبعض ليظل عمران الحياة.

المراجع

١- أبو الوفا الغنيمي التفتا زاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١٩٧٩، ٣.

٢- أبو حامد الغزالي. المنقذ من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود، بيروت، دار الكتاب اللبناني، د. ت.

٣- أحمد علي باحكيم: القصة القصيرة عند مصطفى محمود، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، رسالة ماجستير، ٢٠٠١.

٤- أحمد كمال الجزار: دكتور محمود والتصوف، دار أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٩.

٥- أنور الجندي: مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، سلسلة البحوث الإسلامية، العدد الحادي والخمسون، غرة جمادي الأولى، ١٣٩٢هـ.

٦- توفيق الحكيم: دفتر الجيب، جريدة الأهرام بتاريخ ٢٧ يناير ١٩٨٦، ٣٦٢٠٩.

٧- حسن الشرقاوي: الأخلاق الإسلامية، القاهرة، مؤسسة مختار للتوزيع والنشر، د. ت.

٨- حسني أدهم جرار: "القدوة الصالحة أسلوب تربوي ناجح" مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، السنة ٢٥، العدد ١١٨، سبتمبر ١٩٩٦م.

٩- سعيد إسماعيل علي: "اجتماعية المعرفة في التربية الإسلامية"، مؤتمر نحو بناء نظرية تربوية إسلامية معاصرة، ٢٤/ ٢٧، يوليو، عمان، الشركة الجديدة للطباعة والنشر، ١٩٩٠.

١٠- السيد عبد الحميد مرسي: الإيمان والصحة النفسية، القاهرة، مكتبة وهبه، د. ت.

١١- السيد يوسف السيد هاشم الرفاعي: الصوفية والتصوف في ضوء الكتاب والسنة، القاهرة، دار الإيمان، ٢٠٠٣.

١٢- شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: مجموع فتاوي ابن تيمية، الآداب والتصوف –كتاب التصوف، المجلد الحادي عشر، القاهرة، د. ت.

١٣- عبد الحليم محمود: الإسلام والعقل، القاهرة، دار المعارف، ط٤، ١٩٩٨.

١٤- عبد الغني عبود: العقيدة الإسلامية والأيدلوجيا المعاصرة من سلسلة كتب الإسلام وتحديات العصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٠.

١٥- عبد الغني عبود، حسن عبد العال: التربية الإسلامية وتحديات العصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٠.

١٦- عبد الوهاب الشعراني: المخار من الأنوار في صحبة الأخيار، تحقيق عبد الرحمن عميرة وطلعت غنام، العدد الرابع والستون، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، غرة ربيع الثاني (١٣٩٣ هـ – مايو ١٩٧٣م).

١٧- عبد السلام الهراس: "الإسلام دين الوسطية والقيم الخالدة"، مؤتمر اللجنة العلمية عن موقف الإسلام من الإرهاب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ٢٠٠٤.

١٨- عرفان عبد الحميد فتاح: نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٣.

١٩- عواطف عبد الرحمن – نادية سالم: تحليل المضمون في الدراسات الإعلامية، القاهرة، العربية للنشر والتوزيع ١٩٨٣.

٢٠- مجدي السيد السيد: التصوف والتربية – دراسة تحليلية للفكر التربوي عند عبد القادر الجيلاني، كلية التربية، جامعة طنطا، فرع كفر الشيخ، رسالة ماجستير، ٢٠٠٤.

٢١- محمد حسنين هيكل: "في سبيل حياة جديدة، المعرفة أساس إيمان المستقبل"، جريدة السياسة الأسبوعية، ع ٧٣، ٣٠ يوليو (تموز) ١٩٢٧.

٢٢- محمد شيخاني: التربية الروحية بين السلفية والصوفي، القاهرة، دار قتيبة، ط٢، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥.

٢٣- محمد عرب: التجربة الروحية للغزالي، مجلة التراث العربي، فصيلة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب – دمشق العدد ٩٧ – السنة الرابعة والعشرون – آذار ٢٠٠٥.

٢٤- محمد مصطفى حلمي: الحياة الروحية في الإسلام، القاهرة، دار الشروق، ١٩٤٥.

٢٥- مصطفى محمود: عالم الإسرار، القاهرة، دار أخبار اليوم، ١٩٩٢.

٢٦- مصطفى محمود: الإسلام ما هو، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤.

٢٧- مصطفى محمود: القرآن – محاولة لفهم عصري، القاهرة، دار الشرق، ١٩٧٤.

٢٨- مصطفى محمود: الله، القاهرة، دار العودة، ١٩٧٢.

٢٩- مصطفى محمود: المؤامرة، جريدة الأهرام بتاريخ، ١٧ فبراير ١٩٨٢.

٣٠- مصطفى محمود: المشهد الدامي، جريدة الأهرام بتاريخ. ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٢.

٣١- مصطفى محمود: الوجود والعدم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦.

٣٢- مصطفى محمود: السر الأعظم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦.

٣٣- مصطفى محمود: تلك هي المشكلة.. يا خميني، جريدة الأهرام بتاريخ ، ١٤ مارس ١٩٧٩.

٣٤- مصطفى محمود: رأيت الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨.

٣٥- مصطفى محمود: الإسلام السياسي والمعركة القادمة، القاهرة، دار أخبار اليوم، ١٩٧٩.

٣٦- مصطفى محمود: الرجل الطيب، جريدة الأهرام بتاريخ، ٤ يونيو ١٩٨٤.

٣٧- مصطفى محمود: رحلتي من الشك إلى الإيمان، القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٧٦.

٣٨- مصطفى محمود: واجب الكتاب إن يبحث عن الحقيقة، جريدة الأهرام بتاريخ، ٢٠ أكتوبر ١٩٨١.

٣٩- مقداد يالجن: التربية الإسلامية ودورها في مكافحة الجريمة، الرياض، مطابع الفرزدق، ١٩٨٨.

٤٠- يس رشدي: التصوف ماله وما عليه، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د. ت.

٤١- أحمد حسن أنور: التصوف الإسلامي في الوقت الراهن، ندوة تورينو ضمن فاعليات معرض تورينو الدولي للكتاب، ١٧ مايو ٢٠٠٩.

http://www.isIamic-sufism.com/articlte.php?id = ١٩٤٩

٤٢- طارق العايد: الفروق الفردية في ميزان التربية الإسلامية،

Htt://www.esgmarkets.com/forum/showthread.php?t= ٩٦٣٨

٤٣- محمد الساعي – السيد الحراني: مذكرات الدكتور مصطفى محمود، الحلقة (٢٢)، ٩ فبراير ٢٠١٠.

http://arts.top-talk.net/montada-f٧/topic-t١٠٧١-٢٤.htm

٤٤- مصطفى حسني: من هم عباد الله وصفاتهم.

http:mustafahosny.com/article. php?id=٢٨٧

٤٥- ملاك المصطفى: الطبيعة الإنسانية في التصور الإسلامي.

http://www.bab.com/articIes/full-article.cfm?id = ٧٦١٠

٤٦- نادر اليزري: مفهوم الطبيعة في تصور الفكر العربي.

http://www.balagh.com/thaqafa/

٤٧- الموسوعة الحرة ويكيبيديا: تعرف الطبيعة الإنسانية:

Http://ar.wikipedia.org/

٤٨- أبو العزايم جاد الكريم بكير: صور من الصوفية.

http://majles.alukah.net/showthread.php?t = ٣٩٥١٦

ملخص الدراسة

إن الإسلام دعوة إلى أدب النفس لتهذيبها روحياً، ولذلك فإن أساس الإسلام الإيمان بالله واليوم الآخر وقوة العقل وتركيزه. والحق فإن هذا التوازن الرائع الذي يقيمه الإسلام بين متطلبات العقيدة والحياة الاجتماعية، هو دعوة روحية إلى الله والارتباط به فكراً وعملاً من أجل تهذيب النفس وصلقها والارتفاع بها الآفاق العليا للروحانية السامية.

ولقد تناولت هذه الدراسة تكوين فكرة مجملة عن الآراء النظرية والتطبيقية البارزة التي حفلت بها مؤلفات مصطفى محمود في الأدب والفكر والثقافة، لذلك كان الهدف الرئيس لهذه الدراسة هو: بيان أهم ملامح التصوف عند مصطفى محمود كتجربة تربوية.

وانبثق من هذا الهدف عدة محاور تتمثل فيما يلي:

١- تحديد منابع التصوف عند مصطفى محمود.

٢- الاتجاه الفكري الذي تميز به مصطفى محمود وجعله أديباً متصوفا.

٣- أهم الركائز الأساسية التي أقام عليها مصطفى محمود مبحثه في الوجود.

٤- أهم محددات الطبيعة الإنسانية من منظور التصوف عند مصطفى محمود.

٥- كيفية النهوض بالمجتمع المادي المعاصر من خلال القيم الصوفية.

٦- كيفية الاستفادة من التجربة الصوفية عند مصطفى محمود في إصلاح المجتمع.

ولتحقيق أهداف هذه الدراسة فقد جعلت المنهج الوصفي سبيلها لاستخدام أسلوب تحليل الفكرة، وذلك بالعمل على جمع الجوانب التي تتشابه مع بعضها عندما يعرض الكاتب رؤيته للتصوف من خلال دراسة جوانب الطبيعة الإنسانية حتى نخرج بصورة متكاملة عن ما كتبه أو حققه في الواقع من خلال جمعيته الخيرية، ومن ثم نتعرف وجهه نظره للطبيعة الإنسانية، كي يصل إلى هدفه المنشود.

وخلصت الدراسة بمجموعة من النتائج من أهمها ما يلي:

- لا صلاح للحياة الاجتماعية إلا بتحقيق العلم الذي يصل لدرجة الإحسان وهذا ما اهتمت به الصوفية.
- طريق الوصول إلى العلم الحق هو صدق العبودية لله تعالى ويتحقق بالالتزام بمنهج الله واتباع صراطه المستقيم.
- التربية الصوفية تربية إيمانية تهتم بتقوية الوازع الإيماني عند الأفراد ليصلوا إلى الكمال والرضا النفسي.
- لا توجد مخالفة بين الشريعة والحقيقة الصوفية.
- مهما بلغ علم الإنسان فإنه يظل قاصراً.